حكايات العجائز

* الكتاب: حكايات العجائز (مجموعة قصصية)
* الكاتبة: عبدالرحيم خير
* تدقيق ومراجعة لغوية: عزيز
* تصميم الغلاف: صابرين مُحَمَّد
* إخراج داخلي: سليل الفراعنـة
* رقم الإيداع: 2074 / 2022
* الترقيم الدولي: 978- 977-6875-92-0

المدير العام: عزيز عثمان

لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com
واتس آب: 01005186476
صفحة الدار على موقع فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع










جميع الحقوق محفوظة لدار المنتدى للنشر والتوزيع

كل ما ورد في هذا العمل مسئولية مؤلفه، من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيل له غير منقول، وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر

(مجموعة قصصية)

حكايات العجائز

عبدالرحيم خير




حكايات
العجائز
عبد الرحيم خير



إلىٰ من رَحلاَ عن دنيايَ وتركانِي أُقاسي الوحدة وفراقهم، من رَحلاَ عني وبقيت أرواحُهما معي تتّصلان بروحي، تفرحان لفرحي وتحزنان لحزني، وترفرفان حولي أينما ذهبت، من كانا لي السند والملاذ، والركن الآمن الذي أسكن إليه فأطمئن.

أبي الطيب & أمي الحنون

رحمكما الله وطيب ثراكما وأسكنكما جنات النعيم.

من قلبي أهدي إليكم هذا الكتاب.

شكرا... وعرفانا.... وامتنانا.

عبد الرحيم





الفهرس



* المقدمة *

حكاية لم تبدأ بعد

علىٰ أرفف الحكايات حكاية قديمة، دائما يأخذك الخيال لتقلب صفحاتها، وتتجول بين ذكرياتها؛ تلك التي مرت بكل تفاصيلها فقط في خيال صاحبها.

حكايات لا تختلف كثيرا عن بعضها، بل ربما تشابهت أحداثها وأماكنها، لم يختلف فيها سوىٰ أبطالها، ولكل منا في مكتبة ذكرياته حكاية، حكاية غريبة ليست ككل الحكايات ما قرأها سواه وما عرف تفاصيلها غيره، ما رواها كتاب ولا خط أحداثها قلم.

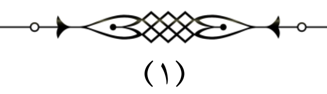
حكايات من نسيج الخيال، حتىٰ أبطالها لا يعلمون شيئا عنها، تنتهي قبل أن تبدأ، دون أن يعرف أبطالها أدوارهم فيها.

حكايات غامضة كغموض أصحابها أولئك الذين عاشوا أحداثها علىٰ شواطئ أفكارهم، وفي دروب خيالهم، تحت أنوار أعمدة

الآمال الكاذبة، - بعيدا بعيدا- عن أسوار الحقيقة وجدار الواقع الحزين الذي تتحطم علىٰ بوابته كل الحكايات قبل أن تصبح حقيقة، ولكل منا حكاية لم تبدأ بعد.

عبدالرحيم خير


وجه
لاينسى



(١)

وجه لا يُنس

لـم يكـن غيابـه هـذه المـرة لعـذر ككـل المـرات التـي غـاب عنهـا ليجعلها تشتاقه وتحن لرؤيته، طال غيابه كثيرا، لم يتصل ولم يـرد، لـم يخبرها أين ذهب ولا متىٰ سوف يأتي؟

تركها علىٰ غير عادته علـىٰ جمـر الانتظـار تقضـي سـاعات غيابـه بين أمرين أحلاهما مر؛ خوفها عليه وحيرتها من غيابه الذي طال هـذه المرة ودون مقدمات، وشوقها إليه الذي كاد أن يذهب بماء عينيها مـن شدة البكاء والحنين، تتمنىٰ رؤيته وسماع صوته، مضت ساعات غيابه ببطء شديد، كأن عقاربها قد قُيدت وربطت في ذلك الترس الذي تـدور حوله.

كل دقيقة في غيابه تساوي سنة كاملة من الألم والقلق والفراق.

هو من كان يخبرها دائما أنه لن يفارقها ويرحل كما هؤلاء الذين يفكرون بالهجرة بحثا عن المال والثراء، كل لحظة تنظـر إلـىٰ سـاعتها وتقول لنفسها: قد عاهدته ألا يتركني ورجوتـه ألا يغيـب، كيـف يفعـل ذلك؟!

كيف لمن عاهدونا علىٰ البقاء أن يرحلوا هكذا دون وداع؟!

كيف لمن شاركونا نبض قلوبنا أن يصبحوا غرباء لا نعلـم عـنهم شيئا بلحظة واحدة؟!

كيف لهؤلاء الذين صاروا بلسما لجراحنا وقطعة من أرواحنا أن يتركونا دون كلام أو عتاب.

كيف رحلوا دون وداع وأماتوا بقلوبنا أمل العودة واللقاء؟!

أليس هو من أخبرني أنه ود لو شاركني أنفاسي وأصبح كظلي لا أفارقه ولا أغيب عن عينيه.

عشرات الأسئلة دون إجابات، تنهشها مخالب الخوف وتكتم أنفاسها رائحة الشوق والحنين.

أوشكت من هول ما تجد أن تحطم هاتفها الذي لم يبشرها بخير بعد عشرات

الاتصالات دون رد، لا تملك من أمرها إلا تلك الدموع التي أغرقت عينيها، وصوت أنفاسها المبحوح، وتلك القشعريرة التي سرت في جسدها فصارت تنتفض كالمحموم انتقلت الحرارة من قلبها إلىٰ جميع جسدها وانهمرت دموعها ساخنة فغطت وجهها، أغلقت باب حجرتها كي لا ترىٰ أحدا ولا يراها أحدٌ، تفكر في رد مقنع إن أحدهم سألها: ما بك؟

تحدث نفسها وتختلق الأسباب والأعذار لغيابه تقول: ربما

هو ليس بخير، ربما لا يملك الوقت... ربما... ربما...

لكن لا أسباب تمنعه من الرد والسؤال، يتصل ويخبرني بحاله، يخبرني أنه بخير ويغيب بعدها كيف شاء يا لقسوتك وصبري علىٰ هذا الجفاء!

هل من نخبرهم أننا بحاجتهم هكذا يرحلون؟!

أمضت يومين كاملين فترة غيابه لم تغادر حجرتها ولم تبرح سريرها تتقلب علىٰ أشواك الفراق وتعبث بروحها رياح الخوف والشك، دمعتها لم تجف وبكاؤها لم يتوقف، خاصمها النوم، طوال الوقت تتظاهر بأنها نائمة لا تفيق لتكلم أحدا وإن كلمها أحد كلمته من تحت الغطاء، تخشىٰ أن يرىٰ أحدٌ دموعها وعينيها اللتين قد تورمتا من كثرة البكاء والسهر.

تقضي ليلها بكاء ودعاء أملا أن يرد الله غائبا طال انتظاره؛ الغائب عن عينيها ونظرها والحاضر في قلبها وروحها وأنفاسها، ما كادت تسلم من تلك السجدة الطويلة التي امضتها في الدعاء، بعد أن رفعت رأسها عن سجادة قد أغرقتها بدموعها، حتىٰ سمعت تلك الرنة المحببة لقلبها، لم يكن ساعتها شيء أحب إلىٰ قلبها ولا أسعد لنفسها من تلك اللحظة التي ظنت أنه ليس بينها وبين الاطمئنان علىٰ ذلك الغائب إلا كبسة زر، لم تتمالك نفسها بعد كل الوقت الذي أمضته في الانتظار، لم تقدر علىٰ أن تصلب عودها لتتناول ذلك المبشر بالخير، ثقُلَ جسدها فعجز عن حملها لتجد نفسها مقبلة علىٰ هاتفها حبوا وكأنها لم تتعلم المشي من قبل، أقبلت إليه لا لتفتحه وترد، بل لتقبله وتحتضنه وتشمه، تريده أن ينقل شوقها إلىٰ من أصبحت لا تستطيع العيش دون رؤيته ولقائه، من أصبح لقلبها كالهواء الذي تتنفسه.

اطمأنت قليلا بعد أن سمعت تلك الرنة المحببة، لم ترد في المرة الأولىٰ، باتت تجهز عشرات الأسئلة التي ستطرحها عليه بعد أن كاد يقتلها بغيابه.

انتظرت لحظات لا ترد وهي من عاهدته ألا يتركها لهواجسها المخيفة ولا تمر ساعة في ليل أو نهار إلا ويسمعها صوته، فكيف به هذه المرة وقد تركها يومين كاملين، لا تعلم عنه شيئا ؟

عاد الاتصال ومازالت تفكر تريد أن تعاقبه علىٰ كل الألم الذي تجده في قلبها.. لكنها لم تحتمل صبرا وقررت الرد لتعلم فقط أنه بخير ثم تقاطعه فترة بعدها لا تكلمه ليشعر بما شعرت به من مرارة الغياب وآلام الشوق والحنين.

ردت لكنها لم تجد ذلك الصوت الذي تألفه وتميزه من آلاف الأصوات، الصوت الذي ظلت تنتظر سماعة لترتاح مما هي فيه، استولت الدهشة علىٰ نفسها وراحت في صمت عميق ولم تجب صاحب الصوت الذي بدا مرتبكا متلعثما حين سألها: هل تعرفين صاحب هذا الرقم ؟

لم ينتظر إجابتها التي لن تكون ولو انتظرها دهرا، واصل المتكلم حديثه قائلا بصوت يشبه الصواعق، لقد وجدنا أنك من أكثر الناس اتصالا واستقبالا لمكالمات هذا الشاب الذي وجد بجانبه في الصحراء.

علىٰ شاشة التلفاز تنقل الكاميرا صورا لمجموعة من الشباب علىٰ الشريط الحدودي بعد أن لم يتمكنوا من العبور، تقترب الكاميرا



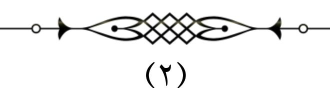
منهم بعد أن لُفت أجسادهم بأقمشة بيضاء، كشفوا وجوههم واحد تلو الآخر ليتمكن أقاربهم من معرفتهم وكلما كشفوا وجها ظهرت ملامحه.

اقتربت الكاميرا من وجه آخرهم كثيرا، قد خالط بياض وجهه التراب والدماء، ولمعت تلك الشامة السوداء التي تميز وجهه الملائكي كان مبتسما كعادته، كانوا سبعة لقوا جميعا حتفهم وكان هو آخر وجه رأيته.



أرواح معلقة





(٢)

أرواح معلقة

أسمعُ قرقعة الأواني بالمطبخ، أستيقظ فزعا على أصوات زجاج يتحطم وطناجر تتطاير وترتطم ببعضها.

عشرات المرات طلبت منها أن تترك تلك العادة المقيتة.

تقول: بالليل يكونا نائمين.

أضحك بغضب: لا تجعليهما حُجتك، هي عادتك منذ أن تزوجنا لم يتغير شيء.

في كل مرة أسألها: ألا تفكِّرين براحتي، وأنا أستيقظ فجرا، ولا أعود إلا في المساء.

تعتذر وتطبع قبلة حانية على خدي، تغمز لي: لن تسمع أي صوت، تغلق الباب خلفها وتعود لتكمل جلي الأواني والتنظيف، وبمجرد أن تصل إلى المطبخ يعود صوت الزلزال.

أنظُر لهما في السرير المجاور هانئين يبتسمان، أقبلهما قبل أن تأتي وتعنفني.

- لا توقظهما لقد أتعباني حتى ناما.
- لا أستطيع مقاومة هذه الابتسامة التي تزين وجهيهما.

كلما سألتها: كيف يضحكان وهما نائمان؟!

- تُضحكهم الملائكة، لكن حذار أن تلمسهم بقي الكثير من الأعمال، تَفقّدهم من بعيد.

رُزقنا توأما بعد سنوات حُرمنا فيها الذرية، منذ أن تأكّدتْ من الحمل وهي تعمل حساب كل شيء لراحتهما، تَبَدّل نهارها ليلا، وليلها أصبح نهارا، كل أعمال البيت تكون بالليل؛ تَنْظِيف المنزل وجلي الأواني والترتيب، حتىٰ الطعام صارت تطبخه ليلا، لأسبوع كامل وتخزنه بالفريزر، كي تتفرغ لرعايتهما طوال النهار.

(عمر) يشبهني كثيرا كأنه وجهي بملامح صغيرة، كلما نظرت لصورتي طفلا ونظرت لوجهه رأيت هذا الشبه الكبير بيننا، و(جنىٰ) كانت بجمال القمر كنت أحب النظر لوجهها ومداعبتها، عيناها الخضراوان وشعرها الأصفر الحريري، وبسمتها التي تشبه أيام الربيع، كأنها نسخة من أمها،

بسمتها تكفي لتنير أيامي وتنسيني تعب أيام طوال من الحرمان في انتظار من يُسمعني كلمة بابا.

في الأيام الأخيرة ومع هذا الوباء كانت تشدد علي دائما.

عند عودتي:

اترك حذاءك بالخارج قبل أن تدخل، احذر أن تلمس شيئا، عقّم نفسك، وفور دخولك اذهب إلىٰ الحمام، ثم تكررها (وقبل أن تلمس شيئًا).

مساكين صغاري مناعتهم ضعيفة، وهذا الوباء لا يرحم.

وفي الصباح:

إياك أن تنسىٰ الكمامة والمعقم، لا نعلم من تقابل أو تخالط في الطريق والعمل.

تهتم بأدق تفاصيلهما تخشىٰ عليهما من كل شيء، حتىٰ مني أنا



وكأنهما أبناءها وحدها.

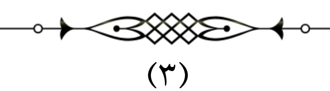
لا تتوقف عن إصدار التعليمات: احملهما برفق، لا تقبلهم في فمهم، ذقنك يُشوّكهم احلقه.

كانت تحتاط في كل شيء وتبالغ كثيرا في حيطتها، زيارات الطبيب أصبحت ضمن عاداتها المقدسة، تراجعه في كل شيء، زاد الأمر عن حده وأصبحت الزيارات متكررة، في البداية كنا نذهب جميعا، أخيرا وزيادة في الاحتياطات خاصة مع انتشار العدوىٰ، اتفقنا أن تذهب هي مع عمر مرة، وأذهب مع جنىٰ مرة أخرىٰ، تقول: لو أصابنا مكروه _ لا قدّر الله _ لا نتضرر جميعا.

هذه الليلة كنت احتضن(جنىٰ) كانت مضطربة علىٰ غير عادتها، بكاؤها لم ينقطع طوال الليل، بمجرد أن غفّلت عاد صوت الزلزال، مضت أيام طويلة ولم أسمعه، استيقظت فزعا وجدتها تدور عابسة في المطبخ، تسمرت مكاني، كاد قلبي أن يتوقف، أخبرتني أن عمر يبكي بفراشه بشدة، أكيد بسبب تلك الرضوض التي أصابته في الحادث وقت ذهابنا للطبيب، كم مرة شددت عليك أن تعتني به ولا تتركه يبكي، كم مرة أوصيتك به، لا تهتم إلا ب(جنىٰ) قالتها بحزم ونظرت إليّ نظرة أقشعر منها جسدي، خِفت بعدها أن أخبرها بأن(عمر) لحق بها بعد أيام من هذا الحادث الأليم.



أنين قلبي



(٣)

أنت قلبي

من بعيد كنتُ أتأمّله، مالَ به فأَسْرعْت...

انفطر قلبي وتحجرت دموعي فحوقلتُ، مؤمنٌ أنّ لله في قضائه حكمةً، وله في خلقه شئون - سبحانه - كل يوم هو في شأن، يَعتلي كُرسيًا حديديا أكل عليه الدهرُ وشرب، محمولٌ علىٰ ثلاث عجلات يتحكم فيهن بكفيه الضعيفين ويحرّكه يمينا وشمالا لا يدفعه أحدٌ إلا ألطاف الله وأملٌ في عفوه ورحمته.

بمقبضٍ يُديره يقودُ كُرسيَّه، يستجمعُ كلَّ قواه ليحرّكَ عجَلاتَه خُطْوةً للأمامِ، لو تأملته تنكسر نفسُك وعينُك، أنظر إلية مشدوها أتعجب من عزمه وصبره وأسأل نفسي: أنّىٰ له أن يُكملَ طريقه ويبلغَ غايته ويصلَ إلىٰ وجهته؟!

وتلك العجلات الرفيعة قد غاصت في الطين في طريق ترابي طويل يفصله عن عيادات الاستقبال والطوارئ.

تراه وكأنه يحملُ نفسَه علىٰ يديه بعد أن عجزت رجلاه عن حمله، يميلُ الكُرسي به يمينا وشمالا يتشبث به، لكن تشاءُ أقدر الله أن ينقلب فيسقط البريء علىٰ الأرض مكسور العين والخاطر ينظرُ حوله لعل رحمةً من الله تدركهُ فيجد من يعينه ويعيده فوق الكرسي في مشهد مأساوي ينفطر القلب لرؤيته.



مال به فأسرعتُ.

أسرعتُ نحوه كغيري أحاول إنقاذه كي لا يسقط، ولكن...

أمثاله من الصبية يعلبون في طريقة ربما صدم أحدُهم كرسيَّه وهو يجري ويلعب، ينظرُ إليهم وينظرون إليه، يراهم يمرحون ويلعبون ويرونه مقيدًا في كرسيّه، وسن حديدي رفيع مغروز في رقبته في طَرَفه خَرطوم متصل بعلبة محلول يتقاطر ماءه ليسري في جسده ليشتد ويتحمل.

كأنه ماءُ الحياة يعيد له زهرة طفولته التي ذبلت بفعل المرض والاعياء.

لا يقدر علىٰ الوقوف أو الحركة، لا يتكلم إلا همسا ولا يعبر إلا إشارة ولا يكرر من كلامِه القليلِ إلا حمد الله والدعاء بتعجيل الشفاء.

تدور عيناه الزائغتين في صحراء وجهه القاحل الذي حُرم الماء فتَيبّس، فتجود سماءُ محاجره بدمع منهمر تترق حباته علىٰ وجنتيه، فتتفتح من مائه زهورَ ابتسامة عذبة وتنبت فوق رُبىٰ شفتيه.

تَخْضّر جبهته لتنيرَ ملامحَ وجهه الشاحب، وتشرق شمسُ محياه الآفلة، كُلمَا مرّ أحدهم فداعبه وابتسم له شفقة عليه ورحمة بحاله.

تنفرج أساريره ويستبشرُ حين يشيرُ أحدُ المرضىٰ بجواره إلىٰ لوحة معلقة فوق رأسه كُتب عليها بخط كبير (وإذا مرضت فهو يشفين) كأنها إشارة تدعوه للبشر والاطمئنان، فيرفع أكُفّه ضَراعة لمولاه طلبا للعفو والرحمة.

ينظر إلىٰ أمه من بعيد تلوح له باسمة ليطمئن، تركته وحيدا تَحرُسه عناية الله؛ لتحصل علىٰ تذكرة الدخول والفحص بطابورٍ طويلٍ غيبه عن ناظريها لدقائق حاول هو خلالها أن ينسىٰ مرضه ويداريً ألمه في زحمة أشباهه، يُسَرّي عن نفسه ويبحث بينهم عن طفولته التي هجرته منذ زمن طويل.

علىٰ الباب يقف مُتَبلّدا لا يُبالي يَحُثهم علىٰ الالتزام بالدور والدخول في الطابور ينادي بصوت يشبه النهيق من لا يلتزم بالدور يحرم من تذكرة الدخول.

يا رب يَسّر، ها قد أقترب دوري.

تُخرج من حقيبتها أوراقا تدفها لهذا المتجهم يعيدها سريعا وقبل فحصها..

- الختم ممسوح وعليك العودة لختمه من جديد، مكتب المدير بالدورِ الثالثِ بالمبنىٰ المجاور.
- أُنظر جيدا هو ختمكم وهذا توقيع المدير، أوراق مريض بالسرطان ما الحاجة في تزويرها ؟!
- هذه تعليمات وأنا عبد المأمور
- ومن هذا المأمور الذي يأمر بإذلالنا بهذا الشكل؟ ألا يكفينا ما نحن فيه؟! ليزيد هو إلىٰ معاناتنا معاناة أخرىٰ جراء هذا الروتين العقيم بإشارة سخيفة من يده وصوت منكر يقول : اللي بعده...

الوقت ضيق ولا مجال لنقاش عقيم مع هؤلاء الذين لا يعرفون

الرحمة، وهذه العقول المتحجرة كقلوب أصحابها والمتحكمة في مصائر هؤلاء الضعفاء - لله الأمر - لألحق المدير قبل مغادرته وإلا اضطررنا الانتظار ليوم إضافي.

اقتربتُ من هذا الملاك البريء، نظفتُ ملابسه وأَعَدْته إلىٰ كرسيّه وناولته قطعة حلوىٰ مغلفة رفض أن يأكلها، قال: ممنوع من الأكل قبل جلسة الكيماوي، أقنعته أن يحتفظ بها لما بعد الجلسة وجلست بجواره لتسليته والتخفيف عنه بعد أن رحل الجميع وبقي وحيدا ينتظر عودة أمه ربما أستطيع نفعه أو تسليته، قطع حديثي وأشار لوالدته التي اقتربت منا، أخبرها بصداقتنا التي توطدت قبل دقائق.

اعتذَرتْ واستسمحتني أن أبقىٰ بجواره إلىٰ أن تعود بالختم المطلوب لصرف العلاج وأخذ الجُرعة الشهرية، أعطتني ورقة وأشارت إلىٰ حجرة مغلقة عليها لافتة مكتوب عليها (سحب العينات).

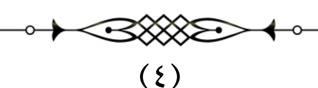
رافقت الصغير حتىٰ وصلنا إليها بانتظار دوره وعودتها وفجأة نادىٰ أحدهم باسمه فحرك كرسيه دون مساعدتي يعلم ما ينتظره فقد اعتاد الأمر بعد عام من جلسات شهرية يقاسي آلامها أملا في الشفاء.

وفي كل جلسة تتكرر المعاناة والآلام والروتين المقيت نظر إلي وقبل أن أساعده شَمَر كُمّه ومد ذراعه ليسحب أحدهم عينة من دمائه وأغمض عينيه خوفا من هذا السن الرفيع الذي

طالما مزق جسده في محاولات مستمرة للتنقيب عن دمه لاستخراج بعضه من عروق أصابها الضمور، وبعد بحث ومحاولات أنهىٰ الرجل عمله ووضع قطنة صغيرة مسح بها آثار دمائه التي نضب معينها من كثرة التحاليل.

من بعيد أراها تهرول جزعة تنهب خطواتها الأرض نهبا انكبّت عليه تقبل يديه ورأسه تحتضنه وتشمه، تود لو كانت له الفداء، تُميله إلىٰ صدرها فيغرق رأسه في بحر دموعها المنهمر، يتقطع صوتها وهي تردد بصوت متهدج (يا رب حكمتك ولا اعتراض علىٰ قضائك) تنظر إلىٰ السماء وتشير إليه رحمة وإشفاقا وهي تتأمل جسده الضعيف ووجهه المصفر ودموعه المنهمرة وفزعه من جلسة العلاج الكيميائي بعد لحظات تحتضنه وتطمئنه قائلة: أنت قلبي، لا تخف ها قد أتيت.


حكايات
العجائز
عبد الرحيم خير



(٤)

حكايات العجائز

جدتي -حفظها الله- قاربت التسعين...

كل من يسمع هذا الرقم يقول كقولك

الآن: التسعين..!

وهم أيضا مثلك، خطر ببالهم ما خطر ببالك الآن من أنها لا تسمع أو أنها تسمع بصعوبة، كثيرون سألوني هل هي قعيدة؟ وآخرون قالوا أعانكم الله على خدمتها، أكيد لا تستطيعون فراقها.

هؤلاء صدقوا؛ نحن حقا لا نستطيع فراقها لشدة ما تمتع به أوقاتنا من أعاجيب الحكايات..!

يتوسط بيتها منازل القرية على الشارع الكبير، تعرف جميع المارة وتحدثنا عنهم بأحاديث لا نعلمها، ونحن من نخالطهم ونتعامل معهم.

في كل صباح تجلس على أريكة خشبية تحطمت قوائمها من كل جانب، وكذلك مدادتاها الخشبية المعدة للاتكاء، تستند على رجلين خشبيتين، ورجلين صنعتا من الطوب الأبيض كي لا تميل، ومن الخلف تستند على حائط قديم من الطوب اللبن.

تحمل بيدها (منشة) لا تستغني عنها حتى في أيام الشتاء، وباليد الأخرى عصا طويلة من جريد النخل الناشف، خلت من السعف.

لا يسلم من لسعات عصاها وسقطاتها المفاجئة، ولسانها الحاد أحدُّ، حال مر ولم يسلم أو يتكلم.

تنبه كل من يمر لسعةُ عصاها الطويلة التي يساوي طولها عرض الشارع تماما ولسعات لسانها الأشد.

- السلام لله.. أم أنكم عميتم لا ترون، وأنتَ لماذا تلتفت يمينا وشمالا (شكلك حرامي)، وأنتِ احتشمي قليلا وتحجبي نصف شعرك ظاهر.

يُعنّف كل من يمر دون أن يلقي السلام أو من تلقي عليه السلام وينشغل عنها، أصبحت كإشارة المرور كل من يمر يجب أن يتوقف عندها ويطلب أمان المرور والعبور.

تعرف جميع المارة، تحاكيهم وتسألهم: عن الأحياء منهم ؛ أمك (فلانة) كيف حالها وجدتك (فلانة) صحيح لسانها طويل لكن طيبة، أبلغهم سلامي.

ثم تستطرد في الحكايات والذكريات التي جمعتها بهم، أما الموتىٰ فإنها تذكر مناقبهم:

(فلان) من خير الناس الله يرحمه و(فلانة) الست (الكُمّل) وتهيم تحكي عنها.

لا تنسىٰ أحدا، يخشىٰ من تحادثه أن يفوته ما خرج من أجله، البعض ممن لا يعجبونها يخشون المرور أمامها هربا سخريتها، وآخرون يفضلون العبور من الشارع البعيد خشية من عصاها ولسانها.

في كل يوم نحمد الله أنها لا تحادث الجمع بما تحادثنا به عن رجال القرية ونسائها، وإلا حدثت مصيبة...!

كل حكايات القرية تعرفها وتحفظها عن ظهر قلب، الزواج والطلاق؛ كل الحكايات الظاهر منها والمخفي.

حكايات تقولها وأخرىٰ تخفيها.

أحيانا نطلب منها السكوت خوفا من الإحراج، تمازحنا قائلة: لا تظنوا إني خرّفت، ليس كل ما يعرف يقال.

حين يختلف الناس في اسم فلانه جدة فلان التي توفيت قبل التوثيق، ما اسمها؟ ومن إخوتها؟ وكم عاشت من العمر؟، يأتون إليها يستفتونها فتخبرهم بأدق التفاصيل حتىٰ باتت تعرف في القرية (بالسجل المدني) لكثرة ما تحفظ من الأرقام والتواريخ والأسماء والحكايات.

نجتمع عندها في المساء، لكن ومن بين أحفادها أذهب مبكرا وأجلس بجوارها كل يوم ساعة الغروب، حين تقترب الشمس أن تودع الدنيا علىٰ أمل العودة واللقاء.

في المنزل المقابل وفي نفس المعاد تطل "بجمال القمر "من الشرفة المجاورة لتنير دنياي، تنظر جدتي تتأمل لهفتي وشوقي لرؤيتها، تقول: ها قد ظهر القمر، ثم تردف:

لئيم أنت لم تأت لتؤنس جدتك وتسمع حكاياتها،

تذم شفتيها وتقول: لأجل الورد...

أرد وقبل أن تكمل: "أنت كل الورد يا غالية".

تنظر إلي من خلف ستارة ملونة لا تظهر إلا نصف وجهها المشرق وتبتسم، أرد تحيتها بهدوء.

جدتي ترقبني وتضحك، من بعيد أنظر في عينيها العسليتين وابتسم، ألوح لها أن تنزل، تشير بيدها أن انتظر لم يحن الوقت، تغادر مسرعة وقبل أن يلحظنا أحدٌ.

كلما غادرت حزنت فتعقد جدتي حاجبيها وتقول وهي تحرك منشتها بحركة دائرية، كأنها تهش عن وجهي البؤس والحزن:

فتنة نحن يا ولدي، إياك أن تتعلق.

تمسك عصاها وتربط خيطا صغيرا في طرفها لفّتهُ حول نهايتها كي لا تجرح يدها، تلوح بها، تجربها، وتستطرد:

النساء عنيدات يا ولدي، متغابيات، يحببن أن يسمعن ماهن متأكدات منه... صارحها، لا تتردد

- ولكني أخشىٰ....

تقاطعني:

- لا تخشَ شيئا، هي تحبك.

أبادرها متعجبا: حقا! من أدراك؟

هل قالت لك شيئا؟

تمسك خصلات من شعرها الثلجي شديد البياض تشده وتقول: شاب من كثرة ما عرفت وسمعت، أعرف، أنا أعرف أنها تحبك.

مالا تحب النساء قوله يبدو في أعينهن، لكنكم لا تفهمون، أنتم معشر الرجال لا تفهمون.

تصمت لحظات أرْجِع فيها بصري ناحية الباب الذي تحرك مزلاجه، اترقب خروجها.

تلحظني جدتي فتقول: في زمانكم كل شيء سريع لا تتأخر صارحها بحبك.

- وفي زمانك؟!
- في زماني كان العشاق من أشقىٰ الناس.

يشتاقون ويكتمون، لا محادثات ولا اتصالات ولا لقاءات...

فرص اللقاء كانت أشبه بالخيال.

قد يحب الإنسان امرأة ولا يراها إلا بعد أن تصبح زوجته، تطوح العصا في الهواء، أو ربما رآها يوم زفافها إلىٰ غيره.

- وأنتِ هل أحببت ؟!

تضحك ملء فمها فتلمع أسنانها الذهبية، كأنها تذكرت شيئا.

- هل كان جدي؟. أم أحد غيره،

وفرق بينكم النصيب؟!

ترد ممتعضة تستعظم سؤالي وتقول بنبرة مستنكرة : غيره؟!

لم يكن في قلبي غيره، كأنني ولدت وهو في قلبي.

- هل كانت لكم قصة..؟!

تعيد كلماتي وتكررها بابتسامة تؤكد أنه كانت لهم قصة؟!...

تملأ رئتيها من الهواء وتتنهد: لكن الزمان غير الزمان.

يوم كنت صبية تسابق الرجال لخطبتي كنت مدللة، وحيدة أبي، وإخوتي سبعة من الذكور الوسماء الأشداء، كلما تقدم أحدهم لخطبتي قامت قيامة إخوتي، وثارت ثورتهم كلما رفضت.

وقالوا: لا رأي للبنات عندنا، يجب أن نزوجها من يليق بنا.

أبي هو من يتصدىٰ لهم ويردعهم بقوله: إن لم توافق فلن أزوجها لأحد، حتىٰ تقدم جدك فوافقت تسرح بعيدا، آه: أعدت إليّ هذه الأيام والذكريات.

الحب في زماننا غير هذا الزمان.

في زماننا كان الحب أن تذهب إلىٰ بيتها لتخطبها وتتزوجها. ومتىٰ تزوجتها عشتما أجمل قصص الحب وبكل معانيه؛ الحب الذي لا يتغير ولا يستبدل ودون تعبير.

لم أفهم دون تعبير؟! نظرت إليها.

لم تمهلني لأسأل قالت:

في زماننا ربما عاش الأحبة أجمل قصص الحب دون أن يقول أحدهما للآخر أني أحبك، أني أحبك.

حب الأرواح هو الذي يدوم؛ أن تتعلق روحك بمن لم ترها، ولم تنظر في عينيها، وأن تكتفي بها و منها.

أن تتواصل أرواحكما دون لقاء، وأن تجتمع قلوبكما كل يوم بدعاء.



بينما كانت تحكي انفتح الباب ببطء خرجت تتهادىٰ فلمع وجهها في عيني كأنها شمس الصباح قد أشرقت من جديد.

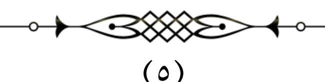
كان الشارع يخلو سوىٰ من نظراتي التي تتأمل خطواتها، نظرتْ إلينا مبتسمة سلمت ومرت، صمتت جدتي وتوقفت عن الحكي كانت تتأمل لهفتي وتتعجب!

داعَبتْها قبل أن تمر بكلمات لم أسمعها، كانت تخطو ببطء شديد وأنا أرقب خطواتها، بينما كانت جدتي تتحسس عصاها ودون أن أشعر سقطتْ علىٰ جسدي، غمزت لي وقالت: هيا الحق بها قبل أن تغادر، مالك أنت؟ وحكايات العجائز!



خارج الإطار





(٥)

خارج الإطار

لم تزدها هذه التجاعيد التي ملأت وجهها إلا جمالا...

حين تشرق الشمس تغزل في عينيها خيوط محبة تسحر من نظر إليها، وحين تلمع في عينيها العسليتين تزداد جمالا على جمالها، أذوب شوقا حين تغازل شمس الصباح غمازتها التي حُفرت بوجهها بفعل هذه الابتسامة الدائمة.

أحقا تراني جميلة بعد هذا العمر ؟!

أنت كالقمر كلما كبرت زاد جمالك.

وأنت كما أنت، صرنا أجدادا ولازلت تراني كما أول لقاء، لم تتوقف يوما عن الغزل.

أتذكرين لقاءنا الأول؟

كنت سأترك الحفل بسبب نظراتك التي كانت تطاردني أينما ذهبت، يومها لم تكف عن ملاحقتي، مشيت خلفي حتى المنزل، خفت أن يراك إخوتي، الآن صار عندنا الكثير من الأحفاد، لاتزال أفعالك كما لو كنت شابا لم تكبر بعد.

أحفادنا؟! أين هم وكانوا من قبل يملؤون بيتنا وحياتنا، صراخهم كان أحب إلي من هذه الوحدة المقيتة، لم يتبق لي أحد سوى جدران البيت، أنا وأنت وهذا الهدوء القاتل...

لولاكِ أنت وهذه الابتسامة الدائمة كنت جننت من زمن بعيد.

- اقتربت الجمعة وسوف يأتون...
- لن يأتي أحد.. لقد منعوهم من زيارتي، يوم رفضت الانتقال لدار العجزة يومها أجبروني أن أتركك وحيدة وأسكنوني بها.

ما عادوا يملكون الوقت لزيارتي، ويخشون من كلام الناس.....

ألن يلومكم الناس؟ ألن يقولوا تخلوا عن أبيهم وكأني لم أتعب يوما في تربيتكم؟! كنت لكم أبا وأما.

- لن يعرف أحد بالموضوع الدار بعيدة عن القرية، وهناك لن تكون وحدك، على الأقل سنطمئن أنك بخير....

وسترى أحفادك دائما.

كانت ردودهم باردة كبرود مشاعرهم.

نسوا كل شيء لا تعجبهم القرية، طرقها وعرة في كل مرة يأتون لزيارتي يتأففون، تتعطل السيارات بطرقها التي لم تعبد منذ سنين..

مجرد حجج وما أكثرها ومع كل زيارة حجة جديدة لكنهم لم يأتوا...

هل انتهت الحجج؟

دار العجزة سيريحكم من عناء زيارتي التي تؤجل دائما بسبب ظروفكم ومشاغلكم التي لا تنتهي، أحفظهم وأقرأ الكذب في أعينهم، الزيارة هذه المرة لم تكن عادية فلم يتخلف منهم أحد، كذّبت نفسي، تمنيت أن يكونوا صادقين..



لكن... مضت سنة كاملة دون زيارات.

هربت من هذا الأسر الذي أودعوني به، عدت من أجلك ولن أتركك.

لم تزل ابتسامتك جميلة كيوم تركتك، اشتقت إليك وأتيت.

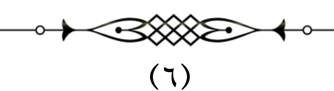
- لم يخطر ببالي أن تتركني وحيدة

- ها قد عدت ولن نفترق بعد اليوم.

تسللت أشعة الشمس إلىٰ عينيها كانت تنظر إلي وتبتسم كنت أسمع صوتها يتردد في جنبات البيت همَست في أذني: لقد انتظرتك كثيرا، أفقت علىٰ صوت ارتطامه بالحائط قد انقطع طرف الخيط الذي علق عليه برواز صورتها الوحيدة.




عودة
الروح



(٦)

عودة الروح

كانت دائما تسأَلُ نفسها أَليس الحب أروَاحا تُفارق أجسادَها لتَسكن أجسادًا أُخرىٰ؟!

تُفارقنا أرواحُنا لتسكن أجسادَ من نحب، ومتىٰ فَارقنا من نُحب فَارقتنا أرواحُنا ورحلت معه.

نصبح ساعتها كأننا موتىٰ علي قيد الحياة ولا يُحيينا إلا الوصال، ولأنها روح واحدة، علينا أن نحسن الاختيار.

فارقتْني رُوحي منذ أن فاقَني، وهو يظُن أن الحب كلمات تقال، لا يعلمُ أنهُ أرواحٌ تنتزع، وقلوبٌ تتقطع من آلام البعد ومرارة الفِراق.

كانت تحدث نفسها وهي تُقلب في صوره ورسائله وتسرح بخيالها بعيدا عند النهر، لقد شهد النهرُ قصتَهُما وعرف حكايتَهُما، كان في كل لقاء يخبرها أنه يرىٰ النهر في عينيها، إنهما باتساعه ولمعانة وصفائه وتدفقه، كان دائما يرىٰ عينيها نهراً كبيرًا متىٰ نظر إليهما أَدركَه الغرق.

تجلس في غرفتها وحيدة تسأَلُ نفسها: ما الذي حدث في هذا اللقاء؟ أهان عليه قلبي الذي أحبه؟! هل هانت عليه رُوحي بعد أن ملكها ليرحل في هدوء دون أن يودعني أو يُعيد إليّ رُوحي التي فارقتني معه، متىٰ تعلم هذه القسوة ؟ ومن أين له هذا الصبر؟ من علمه الهجر والجفاء ؟!

آه كم أحببت أن أقولها، لكني قلتها مرارا بعيني وإحساسي لم يفهم.

منعها الحياء أن تُصرح بحبها.

هو يدرك أنها تحبه، بل إن حبها له أشد، حتىٰ وإن لم تتكلم أو تُعبر أو تقول.

تعرف أنها ملكة قلبه، هي من تأمر وهو من يطيع، هو يتغزل وهي تتمنع.

يفضحه هواه ويبوح بحبه، وهي تكتم وجدها وتداري حبها.

تكتم نار حبه التي اشتعلت بقلبها، وتداري حنينًا يزداد كل يوم لرؤيته ولقياه، تكتم ذلك كله ليوم يَجمع شملَهُما، تظن أنها تدخر كل ذلك لهذا اليوم، ودائما تَدعُو في صلاتها أن يكون قريبًا.

أزعجَه منها ذلك اليوم بخل مشاعرها وحرصها وكتمانها ظن أنها لا تبادله الحب الذي ملء أركان قلبه فأصبح لا يصبر علىٰ صمتها وكتمانها.

أراد أن تبوح له، أن تصارحه أن تسمعه كلمة - أحبك - تروي بها ظمأ حبه وتخمد بها حريق قلبه، وترمم شروخ روحه المشتاقة لقربها، لكنها تمنعت وفضلت الكتمان.

كان في هذه اللحظات كالظمآن الذي يطلب الماء فمنعته، والغريق الذي استنجدها لتنقذه من الغرق فخذلته.

قرر الابتعاد يظنُ أنه ببعده يختبر صدق مشاعرها وحقيقة حبها.

اليوم مضىٰ علىٰ فراقهما أكثرَ من عام، مضت كل دقيقة كأنها دهرٌ لم يحاول أحدُهما أن يتصل بالآخر لم يتغير أحدٌهما في شيء، كأنهما لم يفترقا بعدُ، هو هو نفس الشعور ونفس الإحساس، ونفس الشوق والحنين، بل ربما زاد البعد لهيب الحب بقلبهما، وتضاعف شوقهما إلىٰ لقاء قريب كلٌّ منهما يتمناه وينتظرُ قدومه علىٰ جمر الأيام التي لا تكادُ تَمر.

يغالبان الشوق كل منهما يراقب هاتفه كأنه ينتظر غائبا، وبشوق ينتظر عودته.

هو يظن أنها سعيدة فلا يحاول أن يعكر صفوها وسعادتها باتصالٍ قد لا يجد منه إلا ألما يزيدُ معاناته إن هو وجدها قد نسيت ما كان بينهما، وتقضي حياتها مستمتعة سعيدة لا يخطر ببالها ولا تذكر عهدا وحبًا وأيامًا كانت بينهما.

وهي تظن أنه قد نسيها ويعيش حياة جديدة سعيدة مع غيرها.

حاولت كثيرا أن تعود وفي كل مرة يمنعها الكبرياء، وكيف لها أن تعود؟ وهي التي شددت عليه أن يتركها ولا يحاول أن يتصل بها بعد ذلك الخلاف الذي كان بينهما.

كانت كلماتها قاسية للحد الذي لم يعرفه من قبل، وكأنها تختلق الأسباب لتبتعد، لقد حاول هو أن يغازلها لتهدأ، حاول أن يحتويَ ثورتها التي كأنها ما اشتعلت إلا لتُحرق كل ما بينهما ولا تبقي منه شيئًا.

ساعتها لم تكن تقصد تلك الكلمات التي قالتها، تظن حُبَّه سَيُنْسيه ثورتها وكلماتها القاسية التي تحدثت بها لأول مرة منذ أن عرفها، كم كانت قاسية هذه المرة، لأنها تعودت أن تكون طفلته المدللة لا يرفض لها طلبًا، هي نفسها كانت تظن ذلك دلالا، وتُحبه حين يحتوي ثورتها ويحتمل غضبها ويطلب رضاها، دائما تختبر صبره وتمتحن تحمله لكنها بالغت كثيرًا هذه المرة.

لم تكن تتمنع إلا وهي له محبة ولقلبه عاشقة، لا تبوح، لا تتكلم، لا تعبر عن حبها كأنها لا تشتاق ولا تشعر ولا تبادله الحب، ظن أنها لا تحبه بل تحب نفسها وتحب منه ذلك الحب الكبير الذي ملء قلبه ففاض علىٰ لسانه غزلا ومدحا في محاسنها.

في كل لقاء هو المتكلم، هو من يتصل، هو من يشتاق ومن يحن، هي تحب منه ذلك الشوق الذي يدفعه نحوها، حين تكون المخطئة ويبدأ هو بالحديث والاعتذار.

تحبه كما يحبها، لكنها تحب ذلك منه، تعودت ذلك في حبها له تعود أن تكون معشوقته وأميرته ومالكة قلبه تعودت أن يسترضيها حتىٰ ترضىٰ وإن كانت هي المخطئة.

لكن ما الذي حدث؟! تحب تلك الأوقات التي تغضبه فيها أو يغضبها هو، كانت تتعمد ذلك؛ تعلم أن ذلك لن يدوم، وأن اللحظات التي يبدآن فيها العتاب ستكون أجمل اللحظات بينهما.

كان ساعتها يسمعها من الكلمات ما يجعلها تذوب فيه شوقا حتىٰ أنها تتمني أن حياتهما معا تكون كتلك اللحظات.

لم يكن أحب إلىٰ قلبها من تلك الكلمات التي يقولها ساعة العتاب، تلك الكلمات التي تذيب قلبها وتتمنىٰ لو قبلته واحتضنته من شوقها ومتعتها بما يقول.

سَاعَة العتاب بينهما خيرٌ من ساعات الحب وأجمل من ساعات اللقاء، أحيانا تفتعل المشاكل من أجل ساعات العتاب كان يدور في رأسها نفس السؤال، ما الذي حدث هذه المرة؟ هل أخطأت التعبير؟! هل جرحت كرامته بتلك الكلمات التي لم أقصدها ؟!

هي من تحتاجه وتشتاقه، وتود لو سمعت صوته واطمأنت أنه بخير، أنه لم يتغير، لم ينس حبا وعهدا بينهما.

تسأل نفسها؟

ماذا أفعل وقد قُطعت طُرق الوصل بيننا؟

لم تفكر كثيرا فقد ملك الشوق إليه زمامها فانقادت مطيعة لقبلها لتجد نفسها تمسك هاتفها تتصل به، يدها ترتعش وقلبها يرتجف ولسانها ينعقد ولا يكاد ينطق بكلمه.

المكان هادئٌ تماما سوىٰ من صوت أنفاسها الذي بدا يعلوا شيئا فشيئًا وهي تنظر إلىٰ هاتفها وتنتظر رده مضت تلك اللحظات وكأنها سنة كتلك التي مضت علىٰ فراقهما تماما، كادت أن تنهي المكالمة خوفا من ذلك الرد المجهول الذي ينتظرها ليسعدها حد الاكتفاء أو يحزنها حد الضياع.

باتت ترتب كلماتها لتسترضيه كما كان يفعل هو من قبل قررت

أن تتجرأ لأول مرة لتسمعه تلك الكلمة التي تمنعت عن قولها مرارا قبل ذلك بحجة أن حبها له أكبر من كلمة – أحبك – التي يود أن يسمعها، هي الآن من تود أن تتكلم وتبوح تود أن تصرخ من أعماقها لتقول له: أحبك، أحبك أكثر من نفسي، وأشتاقك وأود لو كنت الآن بجانبي.

تود لو قالتها وكررتها، تود أن تصرخ بها ليسمعها قلبه، قبل أذنيه، تود أن تصرخ بها ليعلم العالم كله أنها تحبه وتشتاق إليه، وتتمني قربه وجواره تتمني أن تقضي عمرها معه وبجانبه، الآن هي ما عادت تخشي العالم.

كان رده عليها هو ماء الحياة التي روت أرضا كادت أن تموت عطشا، لم يبدأها بالكلام كعادته، قد اعتادت منه أن يفتح الخط وينتظر دقائق لا يكلمها، دائما يحب أن يسمع صوت أنفاسها أولا.

الآن هي أيضا تحب أن تسمع صوت أنفاسه لقد غلبها الشوق، كانت وكأنها تتنفس من أنفاسه، لقد زاد شوقها وحنينها، تمنت لو كانت بجانبه الآن لتقبله وتحتضنه وتصرخ بأعلىٰ صوتها أنها تحبه ولا صبر لها علي بعده وجفاه.

مضي وقت طويل ولم يتكلم أحدُهما، تلك اللحظات قال فيها كل منهما أحلي ما سمعه المحبون من كلام، فقط بصوت الأنفاس.

تعالت أنفاسه للحد الذي تخدر معه جسدها، قطعت هي صوت أنفاسهما بقولها، بحبك، بحبك، بحبك، أخذت تكررها مع صوت

أنفاسه الذي تعالت نبرته، وارتفعت حرارته، وزادت معه دقات قلبه الذي أحبها بجنون.

كانت أولي كلماته لها لقد اشتقت لصوت أنفاسك بعد أن مضي عام وخمسة أيام وسبع ساعات ولم أسمعه.

ذهلت من تلك الكلمات التي تسمعها وكأنه كان يعد الأيام والساعات ينتظر فيها عودتها التي طالت كثيرا، ذهلت كذلك من تلك الدقة في حسابه، رغم أن ذاكرته ضعيفة خاصه في حساب الشهور والأيام وتذكر الأحداث والتواريخ، هي تعلم ذلك عنه جيدًا.

قال تلك الكلمات ثم عاد إلىٰ صمته من جديد ليسمع صوت أنفاسها مرة أخرىٰ ليستمر صمتهما كثيرا ليقول كل منها لصاحبه كلاما ظل حبيسا بقلوبهما لأكثر من عام.

في نهاية المكالمة اتفقا معا علىٰ اللقاء في نفس المكان الذي كان يجمعهما من قبل عند النهر ساعة الغروب كان ذلك هو الوقت المحبب للقائهما أحست ساعتها أن روحها تلك التي فارقتها قد عادت إليها من جديد، ولأول مره كانت هي من تبدأ بالكلام.

دائما كانت هي من تسمع دون أن تكلف نفسها مشقة الحديث، كانت تنظر إليه وكأنها تراه لأول مره، تتأمله وتنظر في عينيه، تذوب من فرط شوقها لرؤيته في أول لقاء يجمعهما بعد غياب طويل.

تسأله : هل مازالت تذكر أنك في هذا المكان أقسمت أنك لا تطيق فراقي ولا صبر لك علىٰ بعدي.

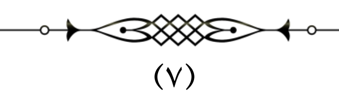
قالت: أنا أقسم لك الآن، أني لا صبر لي علىٰ بعدك ولا قدرة لي علىٰ فراقك، أنا من أذابها حبك وعذبها بعدك وأضناها جفاك وهجرك، أنا من لا أهتم لأحد في وجودك ولا أشتاق لغيرك في غيابك، أنا من عَشقتك بروحها وقلبها، ماذا عساي أن أفعل وأنت لي كروحي متىٰ غبت عني فارقتني الحياة.

نفذت كلماتها فاخترقت أعماق قلبه فاقترب منها ليمسح دموعًا باتت تسيل علىٰ خدّيْها يقبل يديها ويسترضيها ويطلب عفوها ويستميل بأعذب الكلمات وأرق العبارات قلبها كما كان يفعل من قبل أما هي فقد باتت تتمنع، الآن عادت تتمنع من جديد إنها تحب منه ذلك، تحب أن تكون معشوقته وأميرته ومالكة قلبه، يطلب رضاها ويخطب ودها.

يا عزيزي إنها فطرة النساء، من بداية الخلق، وعادة لن تتغير في حبهن للرجال، زعموا أن الملائكة سألت آدم: هل تحب حواء ؟ قال: نعم، وسألوا حواء : هل تحبينه؟ قالت: لا، وفي قلبها أضعاف ما في قلبه من الحب.

سجين الكهف





(٧)

سجين الكهف

منذ نشأته وجد نفسه يسكن ذلك الكهف المظلم الذي لا يعلم كيف دخله ولا كيف له أن يخرج منه، وعلي تلك الظلمة وهذا الضيق الشديد الذي يحيط به إلا أنه يستمتع بالحياة الهانئة الهادئة، لا أحد يقلقه ولا أحد ينغص عليه حياته، يقضي حياته كأمير ملك الدنيا وهيئت لراحته كل السبل، علىٰ ضيق الكهف وشدة ظلمته إلا أنه ممهدٌ ومنظمٌ كأفضل القصور وأجملها وبه كل ما تتمنىٰ نفسه ويتخيل عقله.

ماء عذب ينبع من عين جارية يشرب منها كيف شاء ومتىٰ احتاج حتىٰ يرتوي..

طعامه يجهز إليه ويعد دون أن يكلف نفسه مشقة طلبه عجب عجاب داخل الكهف الذي حوىٰ من الأسرار ما يعجز العقل البشري عن تخيله وإدراكه.

وكأن صاحبنا قد رتب أحواله علىٰ تلك الحياة وهذه الخلوة، لا يحب أن يخرج إلىٰ الناس ويلقاهم وكأنه لا يحب معرفتهم ولا حتىٰ الاختلاط بهم، يمضي وقته متأملا مفكرا ليس لديه من الهوايات إلا لعب الرياضة، لبناء عضلاته وتقوية جسده النحيل، حين يَمَلُّ من تلك الهواية تثور نفسه فيحاول أن يجرب ويمرن عضلاته فيسدد ضربات

متتالية إلىٰ جدار الكهف العملاق لعله يفتح فيه ثقبا صغيرا يرىٰ منه نور الشمس التي حرم منها، لكن أنىٰ لهذا الجسد الضعيف أن يفعل هذا؟!

وأنىٰ لهذه العضلات الصغيرة أن تقدر علىٰ ذلك.

لقد ملّ طول الانتظار ومن الأيام التي لا تمر لقد تعب من رتابة الأيام التي تشبه بعضها إلىٰ حد بعيد، صباحه كمسائه لا شيء يتغير، تمر الأيام ولا جديد، أصبح ساخطا علىٰ كل شيء حوله، بعد أن كان قانعا سعيدا بتك الحياة وهذه العزلة.

أصبح مقتنعا قبل أي وقت مضىٰ أن عليه أن يجد لنفسه مخرجا للخلاص والخروج من هذا الكهف الكبير، الذي سدت فيه كل الطرق وأُغلقت فيه كل الأبواب ومحيت عنه كل النوافذ.

هو لا يعلم من جاء به إلىٰ هذا المكان ولا كيف أدخله إليه ولا حتىٰ الطريق الذي سلكه ليصبح أسيراً كل ذلك الوقت دون أن يعرف طريق الخروج.

حقا هو يجد في محبسه راحة وهدوء لعله إن خرج حرم منهما لكنه مل الوحدة، مل من رتابة الأيام وتشابهها، أصبح الكهف سجنا يريد أن يتحرر منه، يشعر كأنه أسير وعليه أن يجد لنفسه طريق للخلاص.

الآن بات يسمع أصوات المارة خلف الجدران يتحدثون، ينصت لأحاديثهم لكنه لا يعلم عم يتحدثون فهو أصلا لا يفهم لغتهم

تلك التي أعجمت عليه فلا يستطيع فهمها ولا يعرف معانيها، لا يجد لنفسه متنفسا في تلك الوحدة إلا تلك اللكمات التي يسددها لذلك الجدار لعله يفرغ شحنة غضبه بعد أن أصبح غير قادر أن يكتمه يعلم جيدا أن ذلك لا يجدي ؛ فيعود مرة أخرىٰ يفكر ويتأمل الكهف لعله يوفق لحل يخلصه من وحدته ويسترد به حريته المسلوبة في ذلك السجن الانفرادي الذي ما عاد يقوىٰ علىٰ احتماله.

في أيامه الأخيرة أصبح يسمع طرقا علىٰ جدران الكهف ويسمع صوت أقدام ولهجة لا يفهمها، لقد تسرب الأمل إلىٰ قلبه من جديد وبات يسأل نفسه هل يعقل أن يكون أحدهم يعرف بوجودي؟!

هل يمكن أن يكون أحد يسعىٰ لخلاصي وفك أسري؟!

هو يسمع بين الحين والآخر طرقا، فيسأل نفسه أيمكن أن يكون الطرق علىٰ باب الكهف ؛ لكن أنىٰ لهذا الكهف من باب وقد تشابهت جدرانه! أدرك أن عليه أن يتعلق بهذا الأمل ليقوىٰ علىٰ تحمل الحياة التي لم يعد قادر علىٰ احتمالها، لكن ما الذي حدث له؟! ألم يكن من قبل فرحا بهذه الحياة سعيدا بها ؟!

المكان هو هو لم يتغير فيه شيء منذ أن دخله، والحياة هي هي؟! لماذا أصبح لا يتحملها بعد أن كان سعيدا بها؟! لم يجد إجابة لكل تلك الأسئلة التي تدور برأسه المتعب، فعاد يصبر نفسه مرة أخرىٰ

بات يؤمن قبل أي وقت سابق أنه عما قريب سوف يسترد حريته وينعم بها ككل الناس..

ربما هذه هي الأيام الأخيرة، وعليه أن يحاول قدر جهده ليخرج من الكهف ولا يفكر في العودة له مرة أخرىٰ لقد تأكد أن هناك من يعرف مكانه ويسعىٰ لإخراجه، لكن لماذا تأخر؟ ما الذي يمنعه أن يخرجني الآن؟!

ربما الوقت ليس مناسبا، لكن علي أن أساعده ولو بإشارات يعرف بها مكاني، يعرف منها أني أنتظر الخلاص، الآن يجب علي الخروج لقد أصبح الكهف كأنه صحراء، جف الماء منه وضاقت جوانبه بعد أن كان كبيرا واسعا أصبح قاحلا لن أستطيع الحياة فيه بعد اليوم.

في اليوم الموعود، أصبح علىٰ غير عادته قلقا مرتبكا يشعر أنه يوم الخلاص والنجاة يسمع أصواتا تقترب من الكهف وبشدة لا يفهم شيئا من أصواتهم لكن قلبه يحدثه وكأنهم يعرفون مكانه ويبحثون عن طريق لإخراجه مهما كلفهم ذلك.

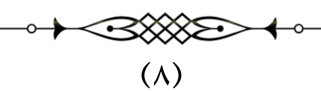
لقد تأكد شكه حين سمع أصوات الطرق تتعالىٰ علىٰ جدار الكهف فبدا الكهف العظيم بتزلزل بفعل تلك المعاول والآلات التي بدت وكأنها تحاول أن تفتح فتحة صغيرة في أحدىٰ زواياه لتخرجه، هم باتوا يفعلون ذلك ببطء وحذر، خوفا من أن تصل معداتهم وأدواتهم لجسده الضعيف فتؤذيه.

بعد أن هشموا الجدار الكبير، بدا يشعر بأن يدا تمتد ناحيته لتزيل من طريقه كل شيء يحول دون خروجه، ويدا

أخـرىٰ تحملـه برفـق قـد أحاطـت بـه وطوقتـه ليعـبر أولـىٰ خطواتـه إلىٰ الحيـاة الواسـعة خارجـا مـن بطـن أمـه باكيـا بعـد عمليـة قيصـرية دامت لأكثر من ساعتين.




الخطيئَة



(٨)

الخطيئة

سأنتحر... قالتها وراحت تلملم ثوب عفتها الذي تدنس بفعل جريمته النكراء، تنتفض رُعبا كأنها لا تُصدق ما حَدث، تَرتعشُ يداها وهي تحاول أن تستجمع بقايا ثيابها الممزق، تستُر به جسدَها، تنتزع أنفاسها التي كتمتها رائحة الخطيئة من الأعماق، أنفاسها تتسارع وصوتها يختنق لم تعد تقوىٰ علىٰ الحركة أو الكلام.

نظر إليها كأنه انتصر، قال : الآن هو من سيأتيني صاغرا يتوسّل.

الآن انتقمت! انتقمت لكرامتي التي أهدرها حين عيرني بفقري وأني تجاوزت الحد حين قصدت بابه أطلب الحلال، الحلال الذي حرّمه عليّ بسبب عجرفته وتكبره انتقمت، انتقمت ؟! رددت كلمته وسألته:

- ألم تجد انتقاما غير هذا؟ ومني أنا؟!

جَري سيلُ دُموعِها فحطّم سُدُودَ عينيها، فانفجرت باكية، قالت: الآن حتىٰ لو قبل هو أتظن أَنِّي أقبل بذئْب مثلك ؟!

ائتمنته علىٰ نفسي فضيعني، مزق شرفي وأفقدني أعز ما أملك.

لقد صدق أبي حين حذّرني.

قال : أنا فعلت ذلك كي لا يُفَرِّق بيننا.

- فعلت ذلك من أجل سعادتنا وحياتنا القادمة لأضعه أمام

الأمر الواقع، بعد أن حكم علىٰ حبنا بالموت، فتحطمت آمالُنا الوليدة علىٰ جسور عِناده.

كانت تستجمع نفسها، قالت : أي سعادة وأي حياة الآن صار الموت أحب إلي من الحياة !

كيف تراني؟ أتظنني ساقطة لأني وعدتك أني لن أكون لغيرك، كيف أنظر في عينك الآن، كيف أنظر في عيني أبي وإخوتي؟

ظننتني ساقطة لأني بادلتك الحب ؟! ولم أخف عنك الشوق، وصارحتك أني لا أستطيع العيش دونك.

ضيعتني لنزوة عابرة، وحقد ملأ نفسك، وطيش لم تفكر في عاقبته، وفكر سقيم رسمه لك شيطان أفكارك.

ضيعتني في لحظة سكر، غاب فيها عقلك وعمي فيها بصرك ولم تقدر العواقب لقد صدقوا حين قالوا : ما خانك الأمين ولكنك ائتمنت الخائن.

طأطأ رأسه خجلا، ارتبك وتلعثم ولم يعرف كيف يجيب ؟

أشعل سيجارا والتقهما وأخرج نفسا نفخة في الهواء كأنه يخفي عنها ملامحَ وجهه، وقال غاضبا :

- أنا فعلت ذلك من أجلنا، ألم تكن هذه رغبتك؟

ثارَ بركانُ غضبها فصرخت وضربت وجهها، قالت رغبتي أنا؟!

تدارك الأمر، قال: أقصد رغبتك في اجتماعنا بأي شكل وأي طريقة!

الآن يمكننا أن نتزوج...

لا أحد سيمانع، حتىٰ ذلك المغرور - والدك-، سيكون أول المهنئين، ولن يعرف أحدٌ ما حدث غيره.

عادت تضرب وجهها بكلتا يديها، كأنها تجلد نفسها لتتطهر من ذنبها، تئن وتصرخ وتقول : ضيعتني، ودمرت حياتي، انهارت وفقدت وعيها...

ندم علىٰ فعلته، حيث لا ينفع الندم، جُن جنونه وهو يسترضيها ويعترف بخطئه وذلته.

سامحيني، لم أعرف ماذا أفعل وقد حكم أبوك علىٰ حبنا وعلاقتنا بالموت، رفضني وسخر مني، أهان أمي تلك التي كانت تظن أن هذ يوم سعدها، كسر فرحتها، كاد أن يقتلها بإهانته.

وما ذنبي أنا ؟! هل ذنبي أنني أحببتك ووثقت بك؟!

هو السبب لم أعرف كيف أتصرف؟

لم أجد حلا، أنتِ لي ولن أسمح لأحد أن يأخذك مني الموت أهون من فراقك.

الموت، الموت... أخذت تردد الكلمة كأنها تنادي الموت، تلوح له وتترجاه أن يخلصها مما لحقها...

أظنك لا تدرك ولن تفهم ما فعلت، لقد حطمتني، قتلتني دون رحمة، الآن أنا لا أصلح لك ولا لغيرك، الآن أنا لا أصلح إلا للموت وحده الموت هو من يقبل خاطئة مثلي، الموت هو

من سيخلصني من هذا العذاب الذي تسببت فيه، سيريحني من تلك الحياة التي فقدت فيها أعز ما أملك بسببك أنت، أنت من أحببته أكثر من نفسي.

استجمعت نفسها، تحاملت، وقامت تجر أذيال الخيبة الموصولة بطرف ثوبها المهترئ، تنظر يمينا ويسارا كأنها تبحث عن شيء يُخلصها.

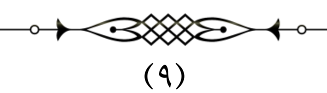
لم تجد إلا زجاجة فارغة؛ كانت هي سبب سكره وفقدان وعيه كسرتها وقطعت شرايينها، حاول منعها كانت دماؤها تتدفق بغزارة الدماء تتدفق وهو يصرخ ويصرخ باسمها محاولا إنقاذها: لا عيش لي من بعدك.

احتضنها وأمسك بكلتا يديها وضمهما بقوة، حاول إيقاف شلال الدم المتدفق، لكن دون فائدة، كانت دماؤها تتدفق كأنها نهر فاض ماؤه وضاق مجراه، حينها كانت تنظر إليه وتقول لن يغسل عاري ويطهر شرفي سوي دمي.

كان يصرخ فيها ويجذبها نحوه، كأنه يستردها من مخالب الموت، وكانت تدفعه بقوة ليتركها، تعوذت من الشيطان، وكلمته بصوت مرتفع، أستيقظ فزعا ليجد نفسه ممسكا بيدي والدته بكل قوته؛ كانت تحاول إيقاظه من ذلك الكابوس المخيف، نظرت إليه و احتضنته قالت: لا تخف سنذهب اليوم لخطبتها والدها رجل طيب لن يمانع، لا تقلق لن تكون لغيرك.

نم قرير العين، ولا تفكر كثيرا.


أفراح
مؤجلة



(٩)

أفراح مؤجلة

ألم تتعبي بعد ؟!

كل مساء، وفي نفس الطريق، ونفس الحمل؛ ماء وخبز وبعض الحلوىٰ، لقد مضىٰ زمن وأنتِ علىٰ هذا الحال...

أمين، صرت شابا يا ولدي، ليكن دعائي رفيق دربك، أول مرة أحسست بحركتك في أحشائي كنت في مثل هذه الأيام في نفس الشهر؛ رمضان

(ركلتني) كدت أسقط من شدة الألم أفقت علىٰ أصوات المصلين يرددون خلف الإمام (آمين) رددتُ معهم، أناجي ربي ودعائي أن تكون سندي في شيبتي.

- يا الله - من قال أني سأصبح أُمًا وأنا بهذا العمر، قالوا : وصلتِ سن اليأس؛ اليأس كلمة تبغضها النساء كأنهم يقولون : عاقر؛ لن تنجبي، ولن تكوني أم.

أستغفر الله، هل أعطاكم علمه؟!

(مشؤوم) من أطلق هذه الكلمة، لا يعرف أن عطاءنا بلا حدود وأننا كالنخيل كلما كبرنا تمددت جذورنا وزاد خيرنا، وما الأعوام في قاموس حياتنا إلا أرقام.

آه منذ أن شعرت بهذه الأعراض وأنا أكذب نفسي خشيت أن

يكون الوهم، حلم أتمناه وطال بي التمني حتىٰ نسيته بمرور الأيام، خفت أن أحدّث به حتىٰ أقربهم إليّ زوجي ماذا سيقول وبماذا سينعتني إن كان ما أشعرُ به محض وهم؟ هل سيتهمني بالجنون؟ أم سيصمت شفقة بحالي؟ ماذا أفعل وكل يوم يكبر بداخلي، أتألم دون أن أتكلم، ولكن إلىٰ متىٰ ؟ أوووف أنا لا أصدق نفسي فهل أنتظر أن يصدقني أحدهم.

استأذنته لزيارة أهلي كانت فرصتي لأتأكد، أعلم أنه لن يذهب معي ولن يأتي ليصحبني عند عودتي، في السابق كان دائما يصحبني، كانت زيارات قصيرة لكنه كان يشتاق رؤيتي فيأتي قبل الموعد، لقد مل، انطفأت غيرته، وخمدت جذوة حبه وانتهىٰ هذا الشغف بقدومي وعودتي..

لم أستطع إسعاده، لم أمنحه طفلا يحمل اسمه ويؤنس وحدته، يلاعبه ويسعىٰ معه، علىٰ حبه لي إلا أنه كَره الوحدة، ما عاد ينتظرُ عودتي ولا يسألني عن شيء أين تذهبين ولا متىٰ تأتين؟ أصبحت في نظره أرضا بورا، ومن يهتم بأرض بور؟! ربما مازال يحبني وإلا لِمَ لَمْ يتزوج بعد، آه... أنا من يدافع عنه أمام نفسي، علىٰ أي حال إنها فرصتي لأتأكد، سأذهب إلىٰ الطبيب لأتخلص من هذه الهواجس لكن ماذا سأقول لهم؟ سمر هي الحل؛ زوجة أخي في شهرها الأخير سوف أقنعها أن تذهب للطبيب، الحمل في الشهر الأخير دائما يحتاج رعاية، وهناك...

الجنين بخير أنظري إنه غلام جميل، كلما حرك الجهاز وأداره

لمعت عيون سمر وانفرجت أساريرها، تحاول أن تخفي فرحتها رأفة بحالي وقبل أن تنهض تصنعتُ الإغماء واتكأتُ علىٰ السرير أشار إليّ أن أتمدد ليفحصني، نفس الجهاز، كم تمنيت أن أرىٰ صاحب هذه الركلات المؤلمة علىٰ هذه الشاشة الصغيرة، بعد قياس الضغط وضربات القلب سألني : بم تشعرين؟ أشعر بدوار وألم وانتفاخ في بطني، أخجل أن أقول أشعر بأعرض الحمل بهذا العمر، منذ متىٰ وأنتِ علىٰ هذا الحال ؟ لا أعرف بالتحديد لكن...

يسألني ولا ينتظر الإجابة يتفحص هذه الشاشة الصغيرة هو أيضا لا يصدق.. إنها معجزة؛ قالها وهو يحدق في الشاشة، هل توجد أعراض أخرىٰ... قيء مثلا؟

لحظة حاسمة كانت تلك التي ظهر فيها ما يشبه الخيال يسبح، أضحك علىٰ حالي، ربما يسبح في خيالي فقط ربما هو الحمل الكاذب كما يقولون، من أدراني ولم أجرب من قبل؟! أدار تلك الآلة المتصلة بالشاشة فوق بطني المنتفخ، أنت حامل قالها وهو يحوقل وقد بدت علامات الدهشة علىٰ ملامحه فهو طبيب العائلة ويعرفني جيدا، سمر أيضا لم تصدق ما قال، حتىٰ أجرىٰ اختبارا آخر أكدّ قوله وبشرني بالحمل، لم أسمع شيئا بعدها إلا زغاريد سمر التي كانت تتعالىٰ حتىٰ وصلنا البيت.

يومها وحتىٰ هذا اليوم لم يكن دعائي إلا آمين أُأَمّنُ علىٰ كل ما تدعو به نفسي، أسميته (أمين)

ليكون له من الاسم نصيب، ليكون أمينا علىٰ من طال انتظارها

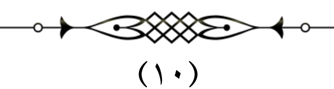
وهي تعد الأيام لتراه يركض أمامها، وأمينا علىٰ هذا الذي ظن أنه أصبح فردا لا وارث له، ربيته علىٰ مكارم الأخلاق وغرست فيه صفات المروءة والشهامة والفداء، أعلمته أن أرضه هي عرضه وأمه الثانية وأن حمايتها جهاد والتضحية في سبيلها استشهاد، اكتملت معالم رجولته، فكنت به أسعد النساء، أراه سندي وعزوتي اتعكز عليه في كبري وأعلم أنه سيحمل نعشي ويأخذ عزائي، وأن عملي سينقطع إلا من دعائه وصدقته، حلمت باليوم الذي أزفه فيه لأجمل عروس اختارها قلبه، أعددت كل شيء لأجل هذا اليوم، يومها كنت أنتظر عودته بعد أن انتهت مدة عمله علىٰ الحدود، لم يأت يومها لوحده، كان بين رفاقه وزملائه من الجنود والضباط جاؤوا جميعا ليشهدوا يوم زفافه جاءني مرفوع الهامة محمولا علىٰ أكتافهم يهتفون باسمه ويلقبونه البطل، يتقدمهم أحد إخوته بصورة له يحمل بندقيته ومن أمامهم يرفرف العلم والجميع يهتفون باسمه زفوا الشهيد....

رمقته مكورا أمام البيت لا حيلة له، شابت لحيته واحدودب ظهره، قلت:

كل مساء، وفي نفس الطريق، ونفس المكان، ونفس الحمل؛ ماء أنثره حول قبره وخبز للمارة، وبعض الحلوىٰ للأطفال لن أتعب من زيارته إلىٰ أن ألحق به.

أصداء





(١٠)

أصداء

خرجتُ هائما علىٰ وجهي كعادتي حين تضيق نفسي، أدك الأرض من تحتي فتحفر خطواتي فيها تاركة أثرا.

تلحق بي، تنادي بأعلىٰ صوتها، تتوسلني لا أنصت لها، لا تغادر وتتركني وحيدة تهدج صوتها وانقطع نفسها ولازالت تركض خلفي تطيب خاطري لأرضىٰ، ولدي من لي غيرك، أنت وحيدي وكل دنيتي، ما أردت إلا مصلحتك هي لا تنفعك، ليست من ثوبنا، لا تغتر بحديثها، إنها حرباء متلونه.

- لن أتزوج غيرها ولن أعود لهذا البيت مرة أخرىٰ.
- انتظر فأنا لا صبر لي علىٰ فراقك روحي معلقة بك ليس لي سواك، تتركني من أجلها؟!

تسقط في طريقها! تحجر قلبي وأظلمت نفسي وأعماني الغضب، لا أعيرها اهتماما وأمضي في طريقي.

لقد تواعدنا وسنلتقي عند البئر، وعدتها أن نلتقي اليوم لأخبرها بكل التجهيزات واليوم أهلها يستعدون لاستقبالنا، لا أعلم ماذا أقول؟

كيف أقول لها أن أمي لا تقبل بك زوجة ! وحلفت أنك لن تدخلي بيتنا.



أعرفهـا جيـدا، أمـي كالرجـال تمامـا لا تحـب أن تتراجـع عـن كلمتها.

لكن أعلم أنها لم ولن ترفض لي طلبا ماذا دهاها هذه المرة.

لا لا لـن أخبرهـا سـأحاول مـرة أخـرىٰ لـن أعـود اليـوم للبيـت وستخرج أمي لتبحث عني، سأقول لها: لن أعود معك إلا إذا وافقتِ بمن اختارها قلبي، أرتب الكلمات وأحكم الخطة لإقناعها.

أعلم أنها لن ترفض طلبي ولن تصبر علىٰ فراقي مر اليوم ولـم تخرج أمي كعادتها لتبحث عني في كـل الأزقـة والطرقـات، في كـل مـرة أغضبها تجوب الحارة وبيوت الأصدقاء بحثا عني لا يغمـض جفنهـا إلا برؤيتي، كـم حذرتني أنهـا أصبحت لا تقـوىٰ علىٰ مطـاردتي في كـل نوبات الغضب، وتسقط قبـل منتصـف الطريـق، يحملنهـا نسـوة الحـي إلي البيت تعود بعد أن تفقد وعيها منقطعة النفس، قلبهـا الضعيـف مـا عاد يُعينها علىٰ الركض خلفي كما أيام الشباب، وفي كـل مـرة تشـكوني للنسـاء القريبـات ولأهـل الحـي وتحكـي معاناتهـا وانقطاعهـا لتربيتـي وتضحياتها مـن أجلي حين رفضـت الخطـاب في عزهـا بعـد وفـاة أبـىٰ وكيف أنها أنفقت أجمل أيام حياتها من أجلي أصبحت حلمها ومنتهىٰ آمالها.

ودوما تعود شكواها لوما وتوبيخا من النسوة والرجال المقربين، نتصالح دائما فور عودتي، لكن ماذا حدث هذه المرة؟!

انتابني الهلع وأكلني الشك لِمَ لَمْ تخرج لتبحث عني.

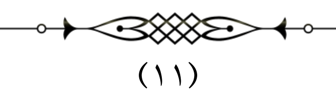
سأقترب أكثر ربما تراني من بعيد، وأنىٰ لهذا البصر الضعيف الذي أنفقته في البكاء مني وعلي أن يجعلها تراني من بعيد.

لم يكن بيتنا كعادته هادئا، كان مزدحما بالأهالي يُسمع من بعيد صراخ النساء وتتعالىٰ صيحات الرجال وهم بين غاد ورائح يدخلون ويخرجون، أجفلتني الزحمة تسمرتُ مكاني، جحظت عيناي باتجاه البيت، سألت ما الذي يحدث؟! أصيبت والدتك وهي تبحث عنك، قلبها ما عاد يحتمل أخبرنا الطبيب أن حالتها خطيرة، لم تعد قدماي تقدران علىٰ حملي كدت أسقط! ليتني أسقط فكم سقطت هي وهي تبحث عني، استندت علىٰ رفاقي ودخلت حجرتها، أعاد وجهها الملائكي إلىّ ذكريات بيننا كم كنت عاقا لها! هذا الصوت الذي طالما بُح بندائي ما الذي أسكته؟! أنا من كنت لا أعيره اهتماما الآن أتمنىٰ سماعه، كأنّ روحها كانت معلقة برؤيتي، لم تكن إلا نظرة واحدة ضحك وجهها لما رأتني رفعت يدها كأنها تودعني واسلمت الروح لباريها، لم يمض شهر علىٰ رحيل أمي حتىٰ تَزَوجت من أحب، عصيت أمرها وخالفت نصحها، ظننت أنها ستعوضني حب أمي ورعايتها، حققت جميع رغباتها، بعت كل ما أملك لإسعادها وفي النهاية عيرتني بفقري وقلة حيلتي وتركتني بعد عام واحد من زواجنا أقاسي الوحدة والخذلان.

صرخت وصرخت مطأطأ رأسي ناظرا بقاع البئر الذي كنا نلتقي بجواره، التفت والناس حولي ودموعي تحفر طريقها منحدرة فوق وجهي أعض أصابع الندم، شابت لحيتي وضعف بصري، ألقيت



حجرا في قاع البئر المظلم فعاد صوت أمي يحذرني لا تتزوجها وعاد إليّ صوت حبيبتي يؤنبني ويعيرني الفقر، صرخت وتشنجت فأشرق وجه أمي بالقاع هممت بالقفز لأحلق بها، منعني أحدهم مد يده ومسد رأسي بسمل وتعوذ، وهمس في أذني وفرق الناس من حولي قال: خمسون عاما ولم تنس، هو هو نفس البئر وهي هي نوبات الذكريات.



(١١)

اتهام متسرع

صفّفت شعرها بأصابعها وأبعدت تلك الخصلات الناعمة من شعرها الحريري لما تدلّت علىٰ عينيها فحجبتهما، ورفعت رأسها الذي بدا وكأنها نكّسته حزنـًا علىٰ أولئك الذين قتلوا بلا ذنب والذين قضوا نحبهم في القصف الإرهابي اللعين، قبّلت الصليب الذي تعلقه علىٰ صدرها، مسحت دموعها ورمقته بنظرة اتهام واحتقار بعد أن رأت جلبابه الأبيض القصير، ولحيته الكثة شديدة السواد تزين وجهه، يمسك المصحف تيمنا يراجع ورده فهو يحفظه عن ظهر قلب.

اقتربت منه غاضبة وبدأته قائلة :وكأني أرىٰ هذا الجلباب أسودا كسوادِ فعلتك بهؤلاءِ الأبرياء!

أطفال، ونساء، وشيوخ كبار، تقتلونهم بغير ذنب؟

أزعجه منها هذا الاتهام المتسرع، وهذه التعميم البغيض، فاستدار ناحيتها وتقدم منها خطوة واحده ليقف بجوارها.

نظر إليها مشفقا مقدرا فجيعتها وحزنها، فتح مصحفه علىٰ سورة المائدة وأشار إليها أن انظري..

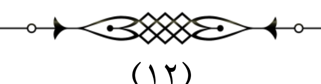
وقرأ لها ((مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ الناس جميعا)) لم ينتظر ردها أشار إلىٰ مصحفه قال: نهانا ربنا عن قتل النفس، وهو في ديننا ذنب عظيم وبكم أوصانا نبينا، أمرنا ببركم



ونهانا عن ظلمكم، فلنا فيكم ذمة ورحما وأنتم جيراننا وشركاؤنا في الوطن، مصابكم مصابنا، نشاطركم الأفراح والأحزان، كيف تظنين أن ديننا ينهانا عن ظلمكم ويبيح لنا قتلكم؟!

بدت متأثرة بتلك الكلمات، نادمة علىٰ اتهامها المتسرع في ساعة غضب وحزن، طأطأت رأسها حياء، لتتدلىٰ خصلات شعرها الحريري علىٰ عينيها فتداري وجهها خجلا مما قالت.





(١٢)

غيوم

فِي يَوم غَابَتْ شَمْسُهُ، نَصّبَ الفزاعة حَارِسًا بَعْدَ أن قلّبَ الأرضَ ونَثَر البذورَ، أَسْنَد رأسَهُ المُثْقَلُ إِلىٰ جِذْع شَجَرةٍ هَرِمَةٍ، تَوَسَّدَ آلامَهُ وافْتَرشَ الْخَيْبَاتِ، تَسَابَقَتْ فِي مِضْمَارِ ذِكْرَيَاتِهِ خَيْلُ أَحْلامه الْمُؤَجّلَةِ والتي لم ولن يحقق منها شيئا راح يجتر الذكريات، يوم بدأت أحلامه تتلاشىٰ أمام عينيه كأنها سراب مها اقترب لا يصل.

بعام واحد تتابعت المصائب، فقد أباه وترك حلمه الكبير يوم ودع التعليم ليكون سندا لأسرته.

هي آخر ما تبق له من أحلام يري فيها كل أحلامه التي لم تتحقق، علىٰ الجسر تبدو كأنها القمر الذي أنار عتمة أيامه.

فتاة عشرينية أصبحت كل حياته وسلوته، والعوض عن أحلامه الضائعة، راح يلوح لها خفية كي لا يراهما أحد، وكانت هي تبتسم له من بعيد، عندما اقترب منها وكعادته ألقىٰ إليها رسالة سهر ليلة ليكتبها، وفي آخرها، سنلتقي في نفس الموعد، دائما تخرج هي من بيتها بعد العصر، تحمل شاي العصاري لوالدها الذي يعمل بالحقل القريب من منزلهم، ويمر هو من فوق الجسر بنفس الوقت، فوق الجسر يكون اللقاء لحظات تلك التي تجمعهم كل يوم منذ أعوام يقضيان فيها أسعد الأوقات ويقول كل منها بعينيه أجمل كلمات،

لكنها هذا اللقاء لم تكن علىٰ طبيعتها انتظرها كادت الشمس أن تميل إلىٰ الزوال تجمعت غيوم سوداء فحجبت نورها المودع أخبرته يومها أنها لن تكون له، لقد تقدم أحدهم لخطبتها ووافق أبوها علىٰ الفور، لم يستسلم هذه المرة كعادته فهي آخر أحلامه المؤجلة والتي لم يحقق منها شيئا، لن يتركها لغيره.

قَهَرهُ التّعبُ فَغَطّ فِي نَوْمٍ عَمِقٍ، في المَساءِ أفاق علىٰ أصوات الزغاريد التي ملئت القرية، في حفل كبير حضره كل أهل القرية، هي كانت تبتسم له كعادتها حين أخرج بطاقته ليكون شاهدا علىٰ زواجها.


صغيرة
هي



(١٣)

صغيرة هي

دمار في كل مكان ؛ قصف همجي، أشلاء تتطاير وألسنة لهب تتصاعد، جثث متفحمة وجو ضبابي كئيب، بيوت تهدمت فوق أصحابها أطفال يصرخون ونساء يفكرن في الانتحار.

رجال متفرقون خيم القهر علىٰ وجوههم مذابح جماعية، القتل والدما في كل مكان، لا مكان آمن يلجأ إليه من هربوا من الجحيم أياد صغيرة ترتفع إلىٰ السماء تشكوا كل تلك الأهوال، أبصار شاخصة تنتظر المصير المجهول، قلوب ترتجف لا آمن بينهم إلا من فارق الحياة فانتهت معاناته.

ليلة حزينة تقضيها المدينة الأبية وأهلها بين قتيل وجريح ومصاب ومفقود، بعد أن كانت رمز النضال والكفاح.

الآن تسقط وتستباح حرماتها.

تفتح عينيها بعد نوم عميق ولا تجد أحدا تصرخ وتصرخ لما رأت هذه الجثث والدماء، كانت من بينهم في غرفة مجاورة لم يصبها القصف، صغيرة هي في عمر الزهور تظن

لأول وهلة تقع عيناك عليها أنها تلعب بين الأشجار كمثيلاتها من الأطفال، حتىٰ تقع عيناك علىٰ تلك الجثث الملقاة بجانبها والتي تنخلع من هول منظرها القلوب، حينها لا تدري ماذا تفعل تلك البريئة في هذا المكان الذي يشبه كهوف الموت الضارب بجناحية والذي خلفها وحيدة علىٰ ضعفها، تقلب تلك الجثث من حولها لعل أحدهم

يجيبها عن سؤالها؛ ماذا فعلتم لتلقون هذا المصير؟! تفوح رائحة الموت في المكان الذي كان من قبل يضج بالسعادة والمرح وكأنه يشارك أمثالها من الصغار سعادتهم تمضي تلك الصغيرة تبحث لعلها تجد بين هؤلاء حيا يؤنس وحدتها تلمع عيناها الصغيرتين كلما اقتربت من أحدهم، هي ما عادت تخشىٰ الموت، ربما هو أحب إليها من تلك الحياة البائسة.

لم تعد حزينة علىٰ هؤلاء الراحلين، اكثر ما يشغلها الآن كيف للأحياء ألا يشعروا بمأساتها، ربما ماتت فيهم الضمائر والقلوب، هل ماتت مشاعرهم فهم في عداد الموتىٰ وإن لم تغيبهم الأرض، حتىٰ الموتىٰ يشعرون!

أخبرها والدها من قبل أن والدتها تلك التي ماتت قبل عام تشعر بها وتفرح لفرحها، أخبرها أيضا أنها تسعد بزيارتها فكانت تذهب صباح كل جمعة لتسقي صبارة زرعتها فوق قبرها تحادثها وتبتسم لها، لقد صدق والدها حين أخبرها بذلك - فقد كانت ترىٰ والدتها في أحلامها سعيدة باسمة، إذن حتىٰ الموتىٰ يشعرون.

فما بال أولئك الأحياء ؟!

باتت تلك الصغيرة تجري هنا وهناك وكأنها تطرق باب الموت ولا يفتح لها، لا تجد من يحنو عليها غير بقايا الفروع المحنية من الأشجار حولها تراها مرة ترفرف لها ومرة تنحني بفعل الرياح لتحتضنها بعد أن قسا عليها كل شيء.

في الأفق ومن بعيد تراهم، فرسان قادمون.



مخاوف كاذبة

كانت تسكن في تلك المدينة المترامية الأطراف، بعيدا عن العمران عند ذلك الجبل البعيد الذي تحكىٰ عنه أعاجيب الحكايات عن أولئك الذي حاولوا الوصول إليه وكشف أسراره ولم يعودوا.

في كل يوم تنظر إلىٰ الجبل الذي يبدوا مخيفا خاصة في الليالي القمرية حيث تنعكس فيه أضواء السماء يتبعها أصوات مخيفة، عرفت بينهم بصوت الغول.

يعتقدون أنه محبوس في أسفل الجبل في كهف كبير، يفترس من يقترب منه، أو يحاول الوصول إلىٰ مملكته التي يعتقدون أنها في المغارة تحت الجبل.

تلك الحكايات كانت كفيلة لتفزع من يحكيها فضلا عمن يسمعها – إلا هي – تلك الفتاة الصغيرة زينب؛ صاحبة العشر سنوات، كانت لا تمل من سماع تلك القصص وما يروىٰ عن الغول؛ شكله المخيف وأظفاره الطويلة وأسنانه المخضبة بالدماء والتي تشبه كثيرا أسنان مصاصي الدماء.

وما يقال عن عينيه الجاحظتين اللتين تشعان نارا.

وذلك الشعر الكثيف الذي يغطي جسده الضخم، وأنفه الكبير المدبب، ومخالبه الحادة الطويلة.

ورغم ما شاع أنه لـم يـنج أحـد مـن أولئك الـذين ذهبـوا في تلـك الرحلة بحثا عن الغول وكشفا للأسرار الغريبة التي طوتها يـد الخـوف من المجهول عبر السنين، إلا أن تلك الحكايـا تسـري بيـنهم وتنقـل في مجالسهم يحكيها الكبار للصغار، ويتناقلها الأحفاد عن الأجـداد، وفي كل يوم حكاية.

لم يسأل أحدهم نفسه يوما عن مصدر تلك الحكايات.

- والمعـروف أنـه لـم يـنج أحـد مـن ذلـك المصير المجهـول، ليحكي لهم ويتناقلون عنه كل تلك الحكايات !

لم تكن زينب كغيرها تستمع لتلـك الحكايـات المخيفـة دون أن تتأملها وتعيد تحليلها لعلها تصل إلىٰ السر المجهول.

دائما تسأل نفسها كيف تصدق عقولهم هذه الخرافات.

كيف يصدقون تلك الحكايات الخيالية؟

أم أنه الخوف ملك عقولهم وأرعب قلوبهم وأعمىٰ أبصارهم؟

هي من بيـنهم لـم تستسـلم لمخاوفهـا وأوهامهـا بعـد أن سـمعت تلـك الحكايـات كغيرهـا مـن النـاس، لقـد زاد إصـرارها وعزمهـا علـىٰ كشف خفايا المجهول ولو كلفها ذلك حياتها.

حاولت زينب ذلك لكنها لم تجد إليه سبيلا فطريق الجبل بعيـد، وعر علىٰ أمثالها هي ربما إن فعلت ذلك فقدت حياتها في الطريق وقبل الوصول لمرادها، دون أن تكشف خرافة الغول.

ربما افترسـتها حيـوان مـن حيوانـات الجبـل الضـارية، إن حـدث

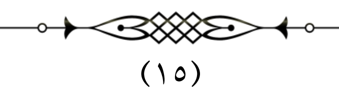
ذلك فكانت ستبقىٰ هي الأخرىٰ من ضحايا الغول هذه الخرافة القديمة الجديدة.

كبرت زينب ومازالت تستمع لتلك الحكايات وتلك الأساطير يرويها الكبار للصغار ويحفظها الخلف عن السلف دون دليل واحد علىٰ صدقها، وهي كلما سمعت تلك الحكايات اكتسىٰ وجهها الملائكي ببسمة سخرية من أولئك الذين لا يجدون تسلية لأوقاتهم غير الخرافات والأساطير المتوارثة.

كبرت وهي تتمنىٰ أن تشهد اليوم الذي تهدم فيه تلك الاسطورة القديمة بما تحوية من خرافات وحكايات خيالية عن الجبل وساكنيه.

لم تمض علىٰ أمنيتها سنوات حتىٰ مر الطريق الصحراوي بقلب الجبل البعيد، وقد احتاج لشقة وتعبيده آلات ومعدات ضخمة، كانت تحدث أصواتا عالية نسج عليها أهل قريتها قصصا عديدة كتلك التي سمعوها من قبل إلىٰ أن وصل الطريق إلىٰ قريتهم الجبلية ليشققها نصفين ويمضي إلىٰ ما بعدها.

بعدها أصبح الجبل آمنا تمام كما كان من قبل.



(١٥)

سوءُ أدب

رأيتــه مــن بعيــد يقــف أمــام الجامعــة يضــرب أخماســا لأســداس- يســتغفر ربــه ويحوقــل - يُحَــدّث نفســه ويقــول بصــوت سمعته من بعيد:

"أيُّ أَدبٍ، أي أدبٍ" - صديقي الأستاذُ الجامعي-، اقتربت منه بعـد أن تعجبـت! لأسـأله عـن حالـهِ، وجدتـه يتصـبب عرقـا ويرمـق إحـداهن بعـد أن اسـتدارت بنظـرات أنكرتها عليـه كانـت قـد ابتعـدت قليلا وهو ما زال ينظرُ ويحدُ النظرَ أشار إليها بعد أن ابتعدت وقال: لم أتمالك نفسي حين رأيتُها من بعيد مقبلـة نحـوي تتمايـل يمينـا ويسـارا وتنظر إلي بجرأة غير معهودة، ترتدي بنطالا أسودا يكادُ لـولا سترُ اللهِ تمزّق من شدّة ضيقه وتيشيرت أحمر كحمرة شفاهها، تلك التي تشـبه الفراولة المستوردة، تنظـر إلـي بعينينـا المكحـولتين اللتـين بـدتا وكـأن الحياء ما عرف لهما طريقا، ترفعهما عن حاجب مرقق لا يستره سـوىٰ تلك، الشعرات المنسدلة عليه من شعرها القصير المصبوع بالحناء.

يــزين يــديها النــاعمتين، أونســيال تتــدلىٰ منــه قلــوب صــغيرة وفي إبهامهــا خــاتم صــغير مــن الفضــة يزينــه فــص لامــع، وتــزين رقبتهــا سلســلة رفيعــة مصــنوعة مــن البلاســتيك يربطهــا خــيط رفيــع، وأخــرىٰ حباتهــا مســتديرة، لا تســتطيع أن تفــرق بينهــا وبــين

المسابح بفمها الصغير علكة تحركها في غنج مربك لكل من يشاهدها تحرك فمها وتديرها داخله.

حين تراها وهي تمشي تتمايل يمينا وشمالا يخيل إليك كأنها ترقص طربا على موسيقى هادئة، وهي لا تبالي بمن حولها بين ناظر إلى حسنها ومعجب بقوامها، ومادح لجمالها، ومنتقد لمظهرها وسلوكها.

تمشي تتمخطر في مشيتها مبتسمة تتحدى الجميع ولا تهتم لأحد، هي أصلا لا تبالي بهذا ولا ذلك ولا بهؤلاء جميعا.

سَكَت لحظة أرجع فيها بصره لفتيات محتشمات بدت هذه الجريئة غريبة بينهن، قال : لم يكن ذلك بالنسبة لي إلا مشهدا عبثيا شاذا لفتاة في مُقتبل العمر خالفت كل الأعراف والتقاليد الموروثة، في مجتمع صعيدي متشدد، وضربت بكل القيم والأعراف والتقاليد الموروثة عرض الحائط غير عابئة بها، ولا مراعية لرقيب أو حسيب.

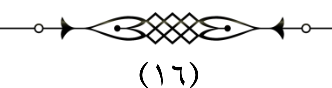
لم تكن دهشتي من منظرها وملابسها الغريبة وزينتها المبالغ فيها وتصرفاتها الجريئة، إلا مقدمة لدهشتي الكبرى حين تقدمت مني بخطوات سريعة لتسلم عليّ وتعرفني بنفسها، وقفت أمامي ورفعت يدها إلى رأسها أزاحت تلك الخصلات الناعمة من شعرها الحريري القصير بعد أن تدلت على عينيها الجريئتين فحجبتهما عن عيني للحظات، التقطت خلالها أنفاسي، أصبحت أتصبب عرقا وأنا أراها تقترب أكثر فأكثر، طأطأت رأسي خجلا وتراجعت خطوه مبتعدا عن



هذه الجريئة التي لا تبالي بشيء، اقتربت مني حد الالتصاق ومدت يدها لتسلم عليٰ وقالت بصوت خشن أجش لا يناسبها مظهرها: أهلًا يا دكتور.

أنا هاني؛ طالب بالفرقة الأولىٰ التي تُدرس لها الأدب.





(١٦)

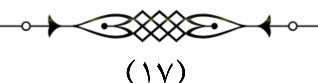
الفدائي

أعدّ العدةَ ورتب الصفوف، أحكم الخطةَ وقسم الجيش إلىٰ كتائب، وجعل لكل كتيبة قائدا، ثم صفهم جميعا ليكونوا في المواجهة، بحسم أعطىٰ الأمر وأعلن ساعة الصفر، ارتفعت نبرة صوته لابد أن نقتحم لامجال للأخطاء ليقف كل في موقعة وليأخذ مكانه وليعرف مهمته جيدا، كان الجميع علىٰ استعداد ينتظرون صافرة البدء وإشارة الهجوم، في الوقت المتفق عليه أشار لهم أن تقدموا قد حانت ساعة الصفر، لنكن علىٰ حذر يجب أن يدخلوا جميعا وبلحظة واحدة لكنّ الممر ضيق جدا ولن يسع الجميع عليهم أن ينجحوا في الاقتحام، لحظة واحدة تحدد مصائرهم، يسطرون بعدها أسماءهم في ذاكرة التاريخ، ويسجلون أحداثا عظيمة تظل شاهدة علىٰ عصرهم وأيامهم، عليهم أن يعبروا جميعا قبل منتصف الليل وإلا فإنهم جميعا سيقعون في الفخ ويسقطون من حساب الزمن.

تم اختيارهم بعناية، مختلفون عن بعضهم وهذا سر قوتهم، لا خيار أمامهم إلا العبور، لقد انتظروا طويلا، واستعدوا جيدا لهذه اللحظة، من يتخاذل يعاقب بالإبعاد وعليه أن يعود أدراجه.

باب المدينة لن يفتح مرة أخرىٰ، عليهم إن يعبروا اليوم وإلا فإنهم سينتظرون عاما آخر، الأسوار عالية والمدينة محصنة لا يمكنهم القفز أو حتىٰ التسلق، يجب أن يضحي أحدهم بنفسه ليدخل من باب

المدينة في اللحظة التي يُفتح بابها لتوديع الراحلين الذين قضوا نحبهم في مشهد وداع مهيب، لا مجال للفشل، لا خيارات يجب أن يدخل أحدهم ليلحق به الجميع وإلا فلن تنجح الخطة، اقترب فدائي منهم ناحية المدينة، صوب بصره ناحية الباب الحراسة مشددة لامجال للاقتحام، كان يترقب وينتظر الإشارة ليكون أول العابرين، اصطف الجنود خلف الفدائي الأول، اختفىٰ الجميع وصاروا كالجسد الواحد وبدأوا يدفعونه للأمام ويحمون ظهره من الخلف، بخطوات بطيئة اقتربوا جميعا من الباب، غاب القمر واقترب الليل أن ينتصف، المكان هادئ تماما سوىٰ من أنفاس تتعالىٰ وعيون تترقب وتنتظر لحظة الحسم المدينة مظلمة والشوارع خالية والمشاعر مختلطة ومتداخلة، حين دقت الساعة لتعلن الثانية عشر كانت هي اللحظة الحاسمة، وكان يناير هو الفدائي الأول الذي اقتحم المدينة من جنود العام الجديد.



(١٧)

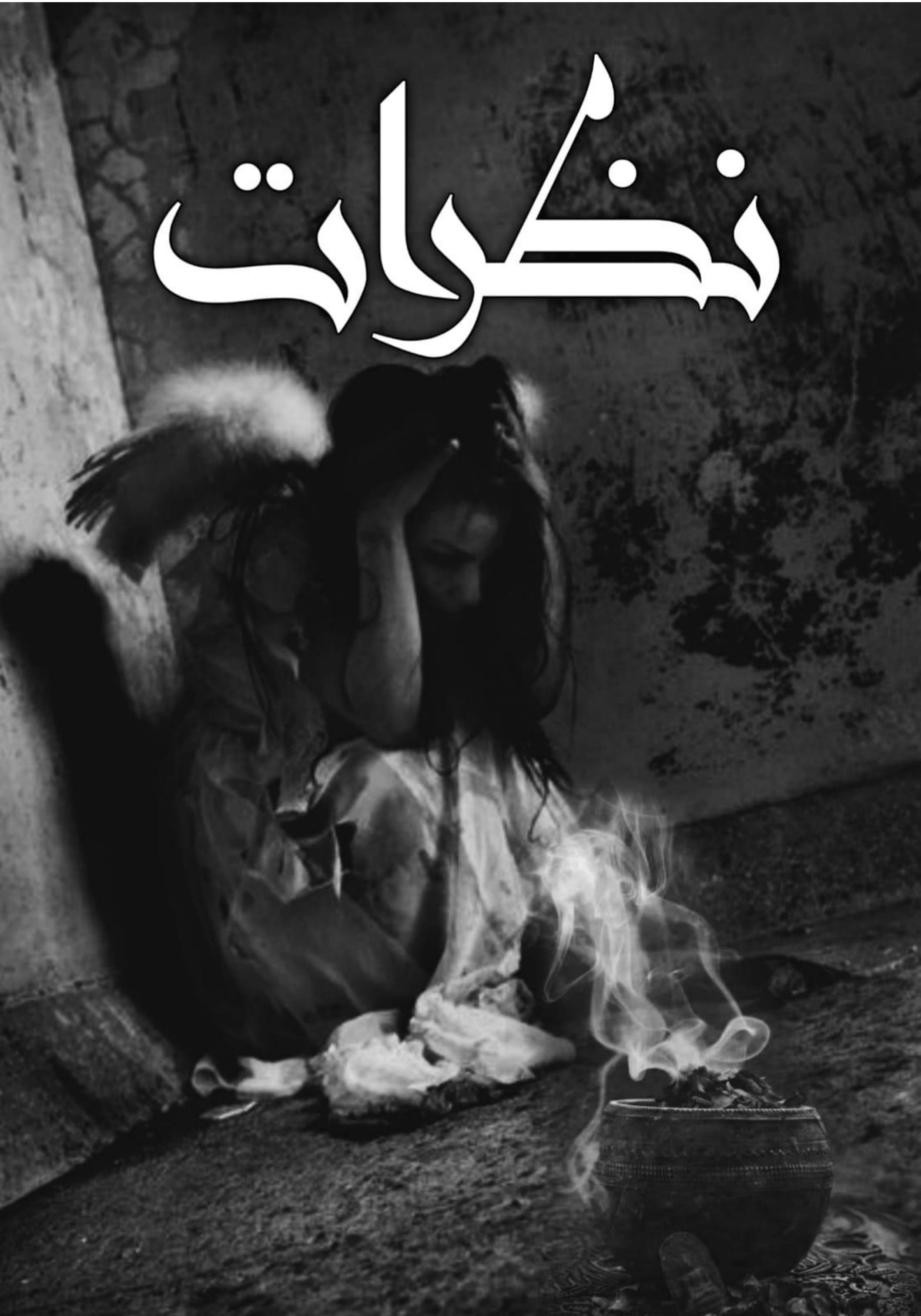
كابوس

من خوفه الشديد كلما أراد أن يفاتحها بالأمر تراجع، لكن الفكرة لم تدعه في كل يوم تطرق رأسه مرات ومرات، كل المجالس بينه وبين أصدقائه تزيد قناعته ويعزم على التنفيذ، حين يلق منهم تشجيعا، لكنه يتراجع خوفا منها باللحظة الأخيرة، عندما عزم على الأمر أراد أن يمازحها ليعرف ردة فعلها، لم يدخل بالموضوع مباشرة بل مهد للأمر مادحا مغازلا شاكرا لها كل صنيعها، لكن ومع هذه الأعمال المتزايدة التي لا تنتهي، ما رأيك لو تزوجت أخرى لتساعدك وتخفف عنك، تؤنس وحدتك وتقتسمان معا كل الأعمال، بدت علامات الدهشة على وجهه لما رآها رحبت بالموضوع، واقترحت أن تساعده بنفسها ليكمل هذا الأمر الذي عزم عليه، زادت دهشته وسألها إن كانت تمزح ؟! لكنها أكدت ما قالت وأقسمت أنها ستختار له زوجة جميلة، وسوف تهديه دَارا واسعا جديدا يَلِقُ بالعروس!

كانت تقف عند قبره تُؤَمِّنُ على دعاء الشيخ حين دعا للمرحوم أن يبدله الله دارا خيرا من داره وزوجا خيرا من زوجه.

أشعلت المصباح حين تعالي صراخة بجوارها، طمأنته وأحضرت كوبا من الماء شرب منه قليلا نظرت إليه وسألته ما بك ؟!

نظر في عينها مباشرة وقال: كابوس.





(١٨)

نظرات

مضىٰ أكثر من عام ونحن بنفس الحال.

وهـذا مـاذا سيطلب؟ دم الغـزال! لـم يتبـق إلا هـو، كلهـم طلبـوا المسك يقولون إنه نافع، لم ينفع لا هو ولا هم.

ألقىٰ الكلمات بوجه حماه ومن معه بسخرية اعتادهـا في كـل مـرة وراح يقلب سجل المكالمات بجواله، وينظر إليهم بنصف عين.

- لا أحتاج شيئا، فقط، ماء وسدر وإناء كبير.
- أُعذره لقد تحمل الكثير، ساءت حالتها بعد عام واحد من زواجهما، كل محاولاته باءت بالفشل، كل من أحضرهم لم يفعلوا شيئا، أرهقوه وأرهقونا، طلباتهم لا تنتهي، أشياء غريبة لا نعرف عنها شيئا سوىٰ روائحها النفاذة وأثمانها الخيالية، سقف البيت تفحم من كثرة البخور، وليتها شُفيت!

الحال علىٰ ما هو عليه، لا يتركها ترتاح ساعة من نهار.

لقد حضر... أرأيت! يحضر متىٰ ذكرناه.

من فضلك أفعل شيئا أصبحنا نخشاه، أصبحت عدوانية مع الجميع، يهددنا بلسانها، يخيف كل من يحاول مساعدتها، شتمته أمها بالأمس من شدة غيظها، زارها في الحلم بهيئته، من يومها ترتجف، تخشىٰ النوم بمفردها.

- منذ متىٰ وهي بهذا الحال؟!

- منذ عام، ربما أكثر قليلا، قتلنا اليأسُ، وتعبنا من العد، لعل بركتك تشفيها.
- الشفاء من الله ومانحن إلا أسباب، خذ أنت هذا الماء ضع فيه بعض الملح، قلبه جيدا، وانثره في أركان البيت، وليأتي زوجها ليكون بجانبي.

قبل عام كنت أشعر أن أحدا يراقبني دائما، وحين أكون نائمة أتخيل يدا تمتد لتلمسني وتتحسس جسدي، أنتفض فأستعيذ بالله من الشيطان، أصبحت لاحقا أسمع أصواتا غريبة؛ قطط، كلاب، تحول البيت إلىٰ حديقة حيوان.

أسمع كل الأصوات ولا أرىٰ شيئا، خيالات وظلال تمر بسرعة بغرفتي أو بالغرف المجاورة، أدخل لأتأكد هل أحد هنا؟! لا أرىٰ أحدا، ولكني متأكدة من وجود شيء ما غريب، وأنا بالحمام أشعر أن أحدا ينظر إلىٰ جميع جسدي، يتأملني، مع مرور الأيام صرت متأكدة من وجوده، أصبحت أخشىٰ دخول الحمام، أفكر كثيرا وأتردد قبل الاستحمام، أحمل هم هذه النظرات التي باتت تترصدني كلما هممت أن أخلع ملابسي، أوقات كثيرة كنت أستحم بملابسي، وإن بدلتها أخفيت جسدي بشيء.

- هل تطور الأمر أكثر أم أن هذا كل ما يحدث؟

نظرتُ في الأرض خجلا من سؤاله.

- نعم تطور، لكن ماذا أقول لك؟! قلتها في نفسي قبل أن يؤكد:

- أجيبيني لأتمكن من مساعدتك، قولي كل ما يحدث لا تخفي عني شيئا، التفاصيل مهمة من أجل العلاج، من خلالها سأعلم إلىٰ أي مرحلة وصل الأمر.

نظرتُ إلىٰ زوجي، كيف أشرح بوجوده؟! لكني تعبت ولا سبيل إلا الاعتراف، تلعثمت في البداية لكنىٰ أكملت مكرهة:

في مرحلة متأخرة بدأت الأحلام، كنت أرىٰ زوجي يقبلني ويعانقني، نفس صورته وهيئته لكن الإحساس مختلف، مختلف جدا، في أول مرة حدث ذلك لم أهتم، قلت ربما يكون الأمر طبيعيا، فطرة ميل الرجال للنساء والعكس، نظرتُ في الأرض قلت: خاصة أن زوجي غير مهتم، أكملت بسرعه، حين نظر إلي، بعدها تحول هذا العناق إلىٰ معاشرة كاملة وعنيفة، كنت أفيق علىٰ إثرها متعبة، وألاحظ وجود ندب وخدوش في رقبتي وجسدي، لم يبدُ أن الأمر حلم أبدا، أي حلم هذا الذي أشعر به ولفترة طويلة بعد أن أستيقظ.

- ها، هل حدث شيء آخر ؟
- نعم... كان الحلم يأتيني علىٰ فترات متباعدة مع كل تلك الأعراض التي أشعر بها والتي زادت للحد الذي صرت متأكدة أن أحدا يراقبني دائما ويتبعني كظلي، أصبح الحلم يتكرر في معظم الأيام، زاد الأمر حين كنت أرىٰ أن جسدي ينكشف، أصبحت حريصة علىٰ النوم (بالبيجامة) وحين أستيقظ أحيانا أجد أزرارها قد فكت، وأيام أجد ملابسي بدلت بالكامل فأستيقظ فزعة.

صرت أكره زوجي لا أحتمل رؤيته ولا جلوسه بجواري، نفرت منه، كلما نظرت إليه وجدته مخيفا، لم أعد أحتمل النظر إلىٰ وجهه، كرهت البيت بكل ما فيه ومن فيه، زادت عصبيتي، الطنين الذي كان يتردد في أذني بقوة من قبل ولم أكن أفسره، الآن أصبح يتردد دائما أسمعه بقوة يقول: أتركيهم.. أتركيهم وتعالي إلي.

- هل انتهيت؟!
- نعم... نثرت الماء في أركان البيت كما قلت تماما وكنت اسم الله.
- هات ما تبقىٰ والحقني، ما هذه الكدمات والحروق بوجهها ويديها؟
- المشايخ؛ أشعلوا النار بوجهها ليحترق إن لم يخرج منها.
- وأنتم أين كنتم وكيف وافقتم، أليست هي ابنتك، كيف تسمح لهم بذلك.
- زوجها هو من أحضرهم، قال إنه واثق بهم، أحيانا كنت أعترض علىٰ أفعالهم، كان يقنعني أن ذلك من مصلحتها يجب أن شفىٰ مما هي فيه، نحن كالغريق الذي يتعلق بقشة، لم نقصر في شيء، لكنهم خدعونا ونهبوا أموالنا، أفلسنا من كثرة الطلبات.
- أغلق الباب، من خلفك لا يدخل أحد ولا يخرج.

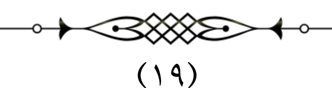
بمجرد أن أُغلق الباب تمتمت بكلمات لم نفسرها، هدأت قليلا لما رأته، وعلىٰ غير العادة جلست في زاوية من الغرفة، بعد أن حكت

له كل شيء، في المرات السابقة وكلما أحضر زوجها شيخا كانت تسخر منه، أذكر أنها ضربت أحدهم ضربا مبرحا، لكن هذه المرة حين شرع في القراءة دفنت وجهها بين فخذيها، ساعة كاملة دون كلام، فقط كانت تنتفض، بعد أن انتهىٰ وضع عصاه المعوج فوق رأسها وراح يقسم ويعزم، وأصبحت هي تنتفض بقوة، تغير شكلها، جحظت عيناها، وتخشبت أطرافها، كانت تصرخ بصوته أتركوني، أتركوني.

- تعلم أني لن أحذرك إلا مرة واحدة، وبعدها تعلم ماذا سيحدث إن لم تنفذ الأمر.
- لم يكن هذا من نفسي، أنا مسخر لأذيتها، لا خيار لدي، أنا مأمور ولا أملك أن أخالف الأمر.
- إذن أنت مأمور! ومن هذا الذي أمرك؟ قل من هو وأخرج أو أترك علامة تدل عليه، إن لم تفعل سوف تحترق.

حين بدأ الشيخ يقرأ بصوت جهوري نسمعه جميعا، صرخت من أعماقها، تلوت وتشنجت كانت تنظر لزوجها وتشير إليه بكلتا يديها بينما يتطاير دخان كثيف في الهواء.


مرايا
عاكسة



(١٩)

مرايا عاكسة

أمرر أصابعي المبللة بالماء في مفرق رأسي، وأمسح وجهي الشاحب وعيني الزائغتين بفعل السهر، ريثما يجهز الكاميرا.

سألني:

- أي المناظر تحب أن يكون بالخلفية؟

لم ينتظر إجابتي، قال:

أقترح عليك هذا المنظر. وأشار إلىٰ ورود صفت بتناسق جميل، تباينت ألوانها، تبعث البهجة في النفوس.

- منظر رائع. لكن لا يشبه حالتي، غيّره من فضلك.

فكر قليلا ثم من قال:

ها... وجدته. أمواج البحر تتلاطم، مد وجزر بالخلف و تقف أنت بالأمام.

- خلفية مثيرة، ستكون صورتك رائعة.
- مدهش فعلا، يشبه ثورتي واندفاعي، لكني لا أحتاج كل هذا الصخب، أريد الهدوء، الهدوء فقط، لقد تعبت.

لا أريد ذكريات جديدة؛ لا أماكن، ولا شواطئ، لا حدائق ولا ورود، لا شيء آخر.

أريدها بيضاء تماما، أو فراغ، لقد اكتفيت من الخيبات والذكريات.



أنظر... سأقف أمام الباب، لن يكون ورائي سوىٰ الفراغ هـذا مـا أحتاجه.

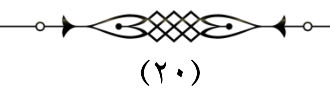
- كما تحب، لكن...
- لا عليك أنا من اخترت الخلفية.
- إذن استعد..

لـم أكـن مهتمـا، نظـرت إلـىٰ المـرآة أمـامي بحسـرة، كنـت أدقـق بملامحـي التـي شـاخت منـذ افترقنـا وغابـت عنـي، حاولـت النسـيان، ظننت أنني نسيت وطويـت صـفحة الماضـي، للحظـة تخيلـت وجههـا أمـامي في المـرآة تنظـر إلـي وأحـدق بوجههـا الـذي ظننـت أنني نسـيته وسلوت عنه.

واحد..اثنان.. ثلاثة.

التقط الصورة لحظة كانت تمر خلفي.


وصية أمي



(٢٠)

وصية أمي

"ارفع صوتك عندما تتحدث، لا تتمايل وأنت تتكلم، سلّم كالرجال هكذا بخشونة، لست فتاة لتُنعّم صوتك، نم بمفردك الرجال لا يخافون..."

حين يروقه الأمر يُخفي ابتسامَته وفرحته، وحين يكون الأمر علىٰ غير ما يحب ينظر إليها موبخا: " أفسده دلالك"..!

يتهمها بالتقصير، وأنها لم تحسن تربيتي، يمرر عينيه بيني وبينها ويقول: "حطّت عجلها ومدت رجلها"[١].

وهي ترد: "ابن الوز عوّام"[٢].

تظهر عليه علامات الارتياح، فيدير وجهه عنّا ويهم بالانصراف، مرات قليلة تلك التي سمعت منه عبارات المدح، أذكر جيدًا يوم عبرنا الشارع إلىٰ المسجد، تحلّق الصبيان حولنا، كانوا يتدافعون، فسقط بينهم، كنت أُمسك يده أو هو من يُمسك يدي، تمتم بكلمات، كأنّه قال مرّ العمر وكبرتُ، رأيتُ بعينيه فرحة لم أعرفها من قبل، نظر كما لو أنه يراني لأول مرة، رغم سقوطه لم أفلت يده من

(١) (حطت عجلها ومدت رجلها) من الأمثال المصرية، يعني أنها رزقت طفلا صبيا، وتحسنت مكانتها عند زوجها، وكانت إشارة منه أن لا تأمن مكره لأنها أنجبت ولدا.

(٢) (ابن الوز عوام) مثل يضرب عند الحديث عن موهبة شخص ما موجودة أيضا عند والده، أو لمديح الابن والأب معًا.

يدي، سحبته فاستند عليّ، وقف ربّتَ علىٰ كتفي بفخرٍ، حبس دموعَه وكلاما كثيرا لم يقله، رجع من صلاة العصر وفاتته الصلاة، اضطرّ أن يبدل ملابسه وعمامته التي اتسخت، انتهزتُ فرصة غيابه ونظرت لهم بغيظ شديد، كانوا جميعا أكبر مني، لم أدرِ إلا ويدي تطوق رقبة أكبرهم، صرعته وطرحته أرضا؛ ثأرا لعمامته التي سقطت، غمرتني سعادة الدنيا وهو يُباهي أصحابه ويقول: أنا من ربيته حتىٰ استوىٰ رجلا يُعتمد عليه.

لم تكن قسوته مبررة، أمي تخشاه وأنا انتفض بحضوره، تنتظر خروجه كل مساء، تغلق الباب خلفه، وتمارس طقوس الأمومة التي حُرمت منها بوجوده، تحاول أن تمسحَ صورة طبعتها قسوته في قلبي، فتحكي عنه كأنه شخص آخر غير الذي أعرفه، كأنه فارس من زمن مضىٰ، أنظرُ ممتعضا حين تصفه "بالحنون" تمسّد رأسي وتدُس بين عباراتها ونظراتها ما يؤكد كلامها.

دون أن يدري تنفذ كل طلباتي، وتشتري كل ألعابي التي أحبها، يوم رفض زيادة مصروفي، كانت تعطيني مصروفا إضافيا دون أن يعرف، في كل مرة أهم بسؤالها من أين لك هذا المال؟! وكل شيء في البيت بحساب، تحت نظره وإشرافه، تغمز لي: اذهب بسرعة لا تفضحنا، بقي السؤال برأسي وبقيت غمزاتها إجابته الوحيدة.

تعوّد الخروج كل مساء يجالس المتقاعدين أمثاله يُعيدون الحكايات ويتبادلون الأخبار، فور خروجه نصعد أنا وهي لسطوح البيت أمارس هوايتي الوحيدة، ونَعْبَقُ من أنفاس المساء نسمات باردة

منعشة، لم تكن أحلامي يوما كبيرة، حلمي الوحيد - تذكرت الآن- حتىٰ هذا الحلم لم يكن حلمي أنا، بل حلمه هو أن يراني طبيبا يفاخر بي أصحابه، وكان حلمها أن تزفني لأجمل عروس، هذا المساء لم يكن عاديا، كانت تبتسم لكن عينيها الجميلتين تخفيان همّا كبيرا، أطلتُ النظر فيهما، هكذا أفعل عندما تخفي عني شيئا، أتعمد النظر في عينيها كأني أستجوبها، هذه المرة لم تحك شيئا، ألقيتُ رأسي بحجرها، كانت شاردة تفكر، وكنت مستمتعا بأناملها الرقيقة تداعب خصلات شعري، أنظر إليها وأدندن مع موسيقىٰ (زيديني عشقا زيديني) قبل أن يطرق الباب عند العاشرة تماما، نلملم شواهد جريمتنا

(الراديو) وحصيرا من البلاستيك نفترشه، ونهرول مسرعين للأسفل، قبل دخوله أتدثر بالغطاء، وأكتم أنفاسي، وتخرج هي لاستقباله، تساعده ليخلع ملابسه وتعود إليّ لحظه دخوله الحمام، تمسّد رأسي تحت الغطاء وتقبلني بحنو، تقول: لا تحزن هو يحبك كثيرا، لكنه يخشىٰ عليك قسوة الحياة، يريدك أن تكون رجلا، أنت وحيده كيف لا يحبك؟! تبتسم وتغمز لي، فأهمس لها:

- أشعر بالخوف من الظلماء؛ فضميني. تعقد حاجبيها تقلّد صوته:

- نم بمفردك الرجال لا يخافون.

تضحكُ وترسلُ لي قبلة من بعيد، يتردد صوته فيهز أركان البيت:

- أنتِ فين يا إحسان؟

تغادر مسرعة، قبل أن يلحظ غيابها.

طبيعة عملة كمدير للمدرسة الثانوية جعلت منه دقيق الملاحظة حازما، الجميع يخشونه ويعملون له ألف حساب، المعلمون والطلاب علىٰ حد سواء، مواعيده مقدسة وطقوسه لا تتغير، في طابور الصباح يتابع كل التلاميذ بنظرة واحدة، يعرف من تأخّر من المعلمين، ومن خرج من الطابور من الطلاب، يلاحظ كل شيء؛ قصات الشعر، الأظافر الطويلة، السترات والقمصان المزركشة، حذّر منها وتوعد من يخالف، ربما تجاوز قليلا من خالف حال كون القميص دون تشجير.

كانت وصيتها مختلفة هذه المرة:

- اعتني به إنه يحبك كثيرا، صدقني. وكيف لا يحبك وأنت ولده الوحيد؟! سوف تكبر وتعرف..!

كررتها كثيرا، كانت تحبس دموعها، وهي تشدّ علىٰ يدي وتبتسم.

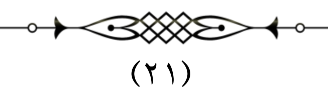
علمت بعدها كيف أنه يحبني كثيرا، كان الأمر مجرد تمثيل، أجاد أبي دوره وأدّاه علىٰ أكمل وجه، كل ما كانت تفعله بأمره وبعلمه، الآن تنازل عن دوره واعتزل التمثيل، أصبح يعتني بكل شيء يخصني، كلما تذكرت كلامها سرحت، تخيلت وجهها ضاحكا تقول:

"كيف لا يحبك وأنت وحيده ؟ هل يعقل ألا يحبك..؟!"

كبرت يا أمي وفهمت، فهمت متأخرا، بعد أن تبادلنا الأدوار، صرت أنا من يعتني به، أرتب شؤونه وأجهّز طعامه، يعرفني أحيانا

ويبادلني الحديث، وكثيرا ينعزل بعالم صنعه من خياله بعيدا عن كل شيء، عالم خيالي أعاد فيه الموتىٰ، يجلس معهم ويحادثهم، يضحك ويبكي بنفس الوقت، أحيانا يستيقظ مبكرا يرتدي بذلته الرسمية ويحمل أوراقه وحقيبته، يمارس مهامه كمدير لم يتقاعد بعد، يأمر أحدهم بحسم: دق الجرس، يلقي تعليماته كاملة، قد ينسىٰ من أكون لكنه لا ينسىٰ ملاحظاته في طابور الصباح، وتعليماته اليومية؛ انتباه، لا تنظر خلفك، لا تخرج من الصف، استمع للإذاعة، لا تخالف التعليمات، ثم يدير وجهه إليّ وأنت: سلم كالرجال، لا تُنعّم صوتك، أنت لست فتاة.

تترقرق بعينية الدموع، يحبسها، ثم ينهرها بحسم "أفسده دلالك" يُرجع بصره إليّ ويسألني: أين هي؟! أين أمك، لقد كانت هنا قبل قليل..!



(٢١)

نهيق الخيول

في إحدىٰ القرىٰ النائية البعيدة كان فلا ح قروي بسيط، يجاور أحد الأثرياء من التجار المعروفين، لم يكن الفلاح معروفا بين الناس وكل من يذهب ليسأل عنه ليستعمله في حقله أو ليقضي له بعض شؤونه وأعماله، كان الفلاح وبكل سرور يخبرهم أن منزله مجاور لقصر فلان التاجر المشهور، وكان من يقصدون منزل الفلاح علىٰ بساطته أكثر ممن يطلبون منزل التاجر الغني، رغم شهرته ومكانته، حزن التاجر من الأمر، تعاظم في نفسه وقال كيف يكون زوار الفلاح وضيوفه أكثر ممن يأتون قصري الكبير، فقرر أن يحتال ليبعد الفلاح عن منزله كي لا يجاوره في السكن وعزم علىٰ أن يهدم منزل الفلاح الذي عكر صفوه، لم يكن للفلاح من حطام الدنيا غير حمار يذهب به للسوق، يقضي به أعماله وعليه يحمل متاعه، فادّعي التاجر زورا أن نهيق الحمار قد أزعجه وأحرجه وأقلق راحته، فلا ينهق الحمار إلا بمجلس يكون كبراء القوم حاضرين بمجلس قصره، وقد تسبب ذلك بإحراجه أمام ضيوفه من علية القوم وكبراء القرية، وادعىٰ كذبا أن نهيق الحمار قد أقلق منامه وكدر حياته خاصة في الصباح وعند خروج الفلاح للعمل، كان قاضي المدينة من بين الحضور فوعده أن يحل الأمر، بعد أن سلم عليه وأهداه صرة كبيرة، في الصباح أرسل القاضي في طلب الفلاح بعد أن عنفه وتكلم كثيرا عن الظلم وحقوق الجار، في

النهاية ألزمه وأوكل إليه مهمة تأديب حماره ومنعه من النهيق! سأله وكيف لي أن أتمكن من هذا وهو حمار لاعقل له؟! وأنا لا أستطيع منع الأمر، ولا أستغني عن الحمار...

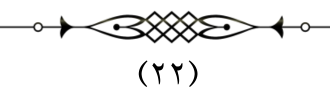
لم يجد الفلاح بدا من تنفيذ أوامر القاضي وإلا تعرض لغضبه وعقابه، فكر طويلا ولم يجد غير طريقة واحدة هي أن يستعمل الحمار طوال النهار وفي نهاية اليوم يترك الحمار خارج البيت بجوار إسطبل الخيول الذي يملكه جاره الثري وبهذا لن يجرأ أحد أن يسرق الحمار وبهذا يُرْضي جاره العزيز ولا يتسبب بضيقه وإحراجه، ويفلت من غضب القاضي....

مرت الأيام وكان الفلاح مسرورا بهذا الحال سعيدا أنه سعىٰ وفكر في راحة جاره، وأن جاره ما عاد يؤذيه نهيق الحمار....

لكن الجار لم يكن مسرورا فذهب إلىٰ القاضي وأخبره أن الحيلة لم تنفع وأن الفلاح قد حل المشكلة وما عاد نهيق الحمار يسمع في وسط الدار ولوح للقاضي بأنه قد يسترد نقوده إن لم يتصرف...هنا خطرت للقاضي فكرة جديدة وسأله وأين يترك الفلاح حماره؟ أخبره أنه يتركه ليلا بجوار إسطبل الخيول الذي يملكه..

طلب القاضي منه أن يجدد الشكوىٰ وأنه سوف يتصرف ويفعل ما يلزم، جدد التاجر شكواه، فاستدعىٰ القاضي الفلاح وطلب منه الحضور، في الصباح عُقدت الجلسة وحكم القاضي بإزالة بيت الفلاح وهدمه وإعدام الحمار، لأن الحمار علم الخيولَ النهيق.


أبغض
الحلال



(٢٢)

أبغض الحَلالِ

تَنْهارُ مدنُ أَحلامنا سريعًا؛ لأنا لم نُحسن الأساس، أقمناهُ علىٰ معادنَ صدِأة ممن كنا نحسبهم رجالا، وتبقىٰ آثارُ أطلالها شاهدةٌ علىٰ سوءِ الاختيار.

- لا أصدق! أنت من يتكلم الآن، لقد حذرتك ولكن.
- آه وما يغني التحذير من القدر.

أسندت رأسها المثقل علىٰ جدار تحفظ توازنها وألقت بجسدها علىٰ كرسي خشبي قريب لولاه سقطت أرضا، دارت بها الدنيا كادت تفقد وعيها فاستسلمت، اختنقت الدموع في عينيها، قالت: حاربت من أجله، وتحديتُ الجميع، لكنه خيّب ظني وكسر قلبي.

لم يكن قريبي ولا جاري لأتعرف عليه جيدا، كان زميلي في العمل، نقل حديثا إلىٰ فرع الشركة الذي أعمل به، قالوا أن سبب النقل، جزاء لأفعاله وعقابا له.

لم يذكر أحدهم هذه الأفعال، كانت شبهات كثيرة تحوم حوله.

لكنه نفاها جميعا بأسلوبه ومعاملته، كان يتقن الخداع ويعرف كيف يصطاد فرائسه بكل سهولة، ملامحه الهادئة وطيبته المصطنعة أخفتا وجهه القبيح، دائما يرتدي وجها مزيفا لا يراه إلا من أصبح من ضحاياه.

سقطت جميع أقنعته التي أخفىٰ بها وجه الشرير الذي يسكنه، انخدعت فيه مثلي مثل غيري من أولئك الكثيرين الذين خدعهم وجهه المزيف، كان يلازمه ويلبسه دائما في أول لقاءاته، أحببته بجنون، أحببت هذا الوجه المشرق الوسيم، وهذه الطيبة الزائدة التي انعدمت في زماننا، وكرمه الشديد الذي غمرني به رغم فقره.

كان يخبرني دائما أَني أصبحت كل حياته، يعمل ويكافح من أجلي، يفعل كل شيء لينال رضاي، صدّقته حين أخبرني أني مستقبله، وأن سعادته في فرحتي ورضاي لم أهتم بكلام من حذروني منه، لم يَدع لي فرصة للتحري، دائما يحاصرني باهتمامه، لم يتركني لأقاويلهم، كان يفندها بإتقان، وأنا من سذاجتي تقنعني أدلته الواهية، وأَنسىٰ أقوال من أرادوا مصلحتي وحذروني.

يقولون دائما: أن مرآة الحب عمياء!

لكن أتكون عمياء لهذا الحد؟!

لهذا الحد الذي لا نرىٰ فيه إلا مزايا من نحب وإن كثرت عيوبه.

شهران فقط مدة زمالتنا في العمل جعلني أُكَذّب الجميعَ وأُصَدّقه، كَذَّبت حتىٰ نفسي يوم أن رأيته يغازلُ إحداهن، وغضبت منه أحرقتني الغيرة واشتعلت بقلبي، نارها أخبرني ساعتها...

لا أظن أنه أخبرني شيئا، أو برر موقفه، لكن كعادتي كذّبْتُ عينيّ وصدقته، كان ماكرا قطع الطريق علىٰ عقلي الذي اتهمه.

سألني: إن كنت أشك به، أم أغار عليه ؟!

مر الموقف دون إجابه ودون تبرير، دون أن أسأله مرة أخرىٰ كأني خشيت أن أفقده فاتهمت نفسي وصدقت قلبي لأجله، لأجل أن يبقىٰ ويخدعني أكثر وأكثر.

كانت سيرته تسبقه علىٰ ألسنتهم، لكنه دائما يُشكّك فيهم وفي كلامهم.

لا أحد منهم من الملائكة ! لكنه كان من بينهم الشيطان الذي أحببته وصدقته وانخدعت بكلامه.

الشيطان الذي تَخَفّي في صورة الملائكة.

رفض أن تطول فترة خطوبتنا، شهران فقط رغم رفضهم جميعا إلا أن تعلقي به جعلني أقف أمامهم أخالفهم لأول مرة في حياتي ظننت أن زواجي به هو بابٌ سأدخل منه إلىٰ مدينة السعادة والأحلام التي شيدتها في خيالي والتي فسدت قاعدتها فانهار البناء فوق رأسي، شهران قبل الزواج ومثلهما بعده، بعدهما بدأت أقنعته بالتساقط خلع أولها يوم أن طلب مني مبلغا كبيرا ادعىٰ أنه أنفقه من أجل الزواج وأنه سيسجن حال لم يسدد دينه، ساعتها كانت بقايا من سذاجتي وتغفيلي، وفتات من بعض آمال كاذبة نسجتها لأهش بها بؤس أيامي، وأتقي بها صفعات الخذلان وضربات النكبات، فأوهمت نفسي بصدقه، فلا حيلة لي إلا أن أصدقه بعدما كذبت الجميع لأجله، بعتُ حُليي ليسدد دينه، تأكدت بعدها أنه أنفقه علي نزواته وسهراته الماجنة، سقط آخر أقنعته يوم واجهته بحقيقته ضربني وأهانني؛ لأتنازل له عما أملك، زاد جنونه حين أخبرته أني لا أملك شيئًا وأني قد

تنازلت عن ميراثي لإخوتي ليقبلوا فكرة زواجي به، واخترته حين خيروني بينه وبين ميراثي، لم يكونوا طامعين لكنهم عرفوا حقيقة أطماعه، كانوا يسعون لحمايتي وحفظ حقوقي، أصبحت لا أملك شيئا إلا مبلغا صغيرا ادّخرته من عملي، كنت أبحث فيه عن بقايا الرجولة والشرف قلت: ضحّيت بكل ما أملك من أجلك، لماذا خدعتني وأنا قد أحببتك بصدق؟! ظننتك ستكون مالي وكنزي الذي يغنيني عن العالم جميعا تركتهم وتمسكت بك أخبرته إني كذبتهم جميعا حين قالوا أنك طامع في ما أملك وأنك لا تعرف معنىٰ الحب، نزلت كلماتي علىٰ سمعه كالصاعقة فارتعد، لم أشعر بنفسي إلا وأنا سجينة غرفة منعزلة بعد أن فقدت وعيي، سجنني وعزلني عن العالم، لا أراه إلا مساء حين يعود فاقد الوعي من شدة السكر، احتقرت نفسي واحتقرته حين عرفت أنه تزوجني ليداري فضائحه ويواري سوءة فسادة، ويسدد ديونه، ولم يقصر في اختراع الحيل ليملك قلبي، تزوجني ليخلص نفسه من السجن الذي ينتظره.

ساومني علىٰ حريتي وخلاصي مقابل المال الذي ادخرته من عملي فقبلت، رجعت إلىٰ إخوتي أعتذر منهم، وأجر أذيال خيبتي في طرقات المدينة، أطرق بابهم وأخشىٰ ألا يفتحوا لي، سقطت علىٰ بابهم كما سقطت من قبل من أعينهم حين خالفتهم واخترته، في يوم الخلاص جلس بجوار الشيخ ومن حوله إخوتي، كان الشيخ يمارس دوره في النصح والوعظ، خاطبه يظنه من الرجال، طالبه أن يتمهل وأن يراجع نفسه فإن أبغض الحلال عند الله الطلاق، كان يمينه أسرع إلىٰ

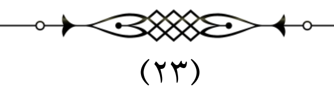


سـمعي مـن نصـائح الشـيخ وكلماتـه، سـاعتها كنـت أنظـر إليـه احتقـارا وأمزق ورقة بيـدي أجـبرني علىٰ توقيعهـا تنازلـت فيهـا عـن مـدخراتي، سرقتها من جيب معطفه في لحظة سكر دون أن يشعر.



عطر الذكريات





(٢٣)

عطر الذكريات

رائحةُ التراب المبلل بماء المطر تعيدُ إليَّ وجه أُمي؛ سُمْرتُ ملامحها الفاتنة تشبه لون الأرض، طيبتها تشبه نقاء ماء السماء وبركته، وامتزاج الماء المبارك بالصعيد الطيب يذكّرني وجهها ورائحتها..!

أشتاقها؛ فأقبض من الأرض بكفيّ حَفْنة من تراب بللها المطر، بين راحتيّ أشتم أريج عطرها، فيتراءىٰ وجهها يتلألأ.

تلمع عيناها السوداوان بنظرة حانية تضيء عتمة أيامي القاسية، تبتسم وأبتسم، لحظات وتختفي.

كانت كلما أمطرت أخرجتني في صحن البيت:

- " المطر خير وبركه اشرب منه واغتسل"

أضحك وأقول: مثلك يا غالية..!

ترفع كفيها وتضمهما تجمع بينهما قطرات المطر وتمسح وجهها:

- " امسح وجهك ليشرق؛ ماء المطر حديث عهد بالسماء"، وادع كثيرا، الآن كل الدعاء مستجاب.

حين تمسح وجهها بِمَ جمع كفها من الماء، تغوص القطرات في وجهها الذي ملأته التجاعيد، واختبئ الفرح في ثنايا تعرجاته من قسوة



ما رأت وعانت.

في كل مرة يتساقط المطر يزورني طيفها، فأشعر بيدها الحانية تمسح رأسي، ويعيد ثغرها الباسم إليّ ذكريات مضت، فيشرق يومي بجمال إشراقها في خيالي.

أعود بعد غفوة، أسأل نفسي: لم يكن حلما؟! لم أشعر بالنوم، ولم تغف عيني. لا أعرف هل هي تهيؤات أم أحلام اليقظة كما يقولون.

في كل مرة أشتاق وجهها أنظر إلىٰ السماء، أشعر أني معلق ومشدود بحبل وصالها بين السماء والأرض، بين الصحو والمنام، بين الحقيقة والخيال، والحضور والغياب..

في كل مرة ينكسر قلبي ويزيد همي تربت يد قلبها الحانية علىٰ قلبي فتتشتت أحزاني وتغيب أوجاعي، وأعود لأكمل دورة الحياة من جديد.

لم يكن همها في الحياة إلا أنا، كنت أحيانا أتساءل كيف تستطيع امرأة أن تجمع كل هذه المتناقضات، كيف تصبح الحنونة القاسية، الأمية المتعلمة؟! كيف تتحول وبلحظة واحدة من أم حنون لتؤدي دور الرجل الحازم الشديد، كيف تدور دورة كاملة وتتغير بلحظة من قسوة وحزم تتصنعهما ليشتد عودي وأصبح كالرجال، إلىٰ حنان مفرط حال تألمت أو توجعت.

في مرضها الأخير ضاقت بي الدنيا ولم أدر ما أفعل، سألتها

ساعتها وأنا أنظر إليها: كيف لجبل عظيم أن يتهدم؟! وكيف لنبع صاف أن يجف؟..

في كل نوبات مرضها كانت تداري وجهها إشفاقا علي، أشعر بآلامها لكنها دائما تكْذب لتداري وجعها: "لا تقلق أمك جبل"

لكن هذه المرة لم تكن كما المرات السابقة؛ يومها لم تقدر أن تداري وجعها، كانت تتألم وتضحك، تنظر في عينيّ: " قلت لك لا تخف أمك جبل"

أمازحها بدموع تكاد تخنقني: " سلامتك يا جبل"

تمسد رأسي: أرح بدنك وعينيك، نم قليلا فأنا بخير.

تنفلت دموعي فلا أقدر علىٰ دفعها وأنا أشعر بوجعها، لا عليك يا غالية لقد نمت طويلا، كنت غافلا كل هذا العمر، والآن انتبهت، تشير إلىٰ زجاجات أدويه وحبوب مسكنة، تشرب منها وتسكن قليلا: "اتعبتك ياحبيبي"

- لا عليك يا حنونة، فقد اتعبتك طوال عمري.

أبكي بكاءً تكاد تضيق عنه عينيّ..!

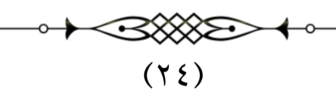
من أنفقت حياتها من أجلي، تقول:" أنها أتعبتني"

من أجل ليلة قضيتها بجانبها....

إلي الآن لم أصدق أنها فارقتني!

كنت كلما ذهبت إلىٰ قبرها تراءىٰ لي وجهها ضاحكا، فأقبل نحوها أتمنىٰ لو جاورتها به، فتشير إلي من بعيد أن توقف وسنلتقي

بعـد حـين، أعيـد أدعيتهـا التـي كانـت تـدعو لـي بهـا، وأعـود منتشـيا، يهدهدني الحنين. أدخل حجرتها أتفقـدها، وأتأمـل بقايـا أشـياءها التـي أصـبحت سـلوتي بعـد رحيلهـا؛ مسـبحتها وسـجادة الصـلاة، وعباءتهـا السـوداء الداكنـة، أزور حجرتهـا كـل يـوم أنظفهـا، أرتـب سـريرها ومحتوياتها التي بقيت علىٰ حالتها، ولـم يتغير فيها شـيء، يسـري عبيـر رائحتها في أنفي، في رحاب غرفتها أدرك أن أمي هي مصدرُ هذا العطر.



(٢٤)

حب بمقاسات خاصة

لم يكن من هؤلاء المتسرعين ليصارحها بحبه، لقد قضىٰ وقتا طويلا قبل أن يشعرها بذلك لم يحاول النظر إليها من قريب، دائما يراقبها من بعيد، لا لشيء إلا أنه أحبها بصدق فقرر ألا يردد تلك الكلمة التي إن قيلت قبل أوانها تفقد معناها.

كان يرىٰ الحب بعين متأملة، يراه إحساسا يجب أن يصلها قبل أن يعبر لها عنه، يخشي الوهم الذي قد يأخذه بعيدا، يحلق في سماء الحب بأجنحة الخيال فيسقط ويتحطم.

يسأل نفسه هل تبادلني هي هذا الشعور؟ أم أني من أولئك المخدعين الواهمين ؟

من أولئك الكثيرين الذين سحرهم حديثها وأصابت بسمتها سويداء قلوبهم للطف معاملتها ورقة إحساسها.

لقد حدثه أحدهم قريبا بشيء يشبه ذلك، ظن واهما أنها تحبه لما رآها تبتسم له كلما رأته، تلك البسمة التي حار الجميع في فهمها يرون ابتسامتها علامة حبها، تلك طبيعتها وهذه ابتسامتها، هي أصلا لا تتكلفها، تبتسم حتىٰ لأولئك العابرين الذين لا تعرفهم.

منحها الله وجها ملائكيا بريئا تكسوه ابتسامة دائمة، كأنها شامة في وجهها فهي تبتسم وإن لم تبتسم.

أكثر ما يخيفه إن صارحها بحبه أن يفقدها، يخشىٰ أن يفعل ذلك ولا يظفر بقلبها، بعدها لن يستطيع النظر في عينيها لا من بعيد ولا من قريب.

ولكن إلىٰ متىٰ الانتظار؟

أصبح هذا السؤال يتردد في نفسه صباح مساء.

وكيف لي أن أصارحها وهي بعد لم تعرفني جيدا؟

كيف لي أن أفاتحها في ذلك وأنا أعلم أنها تلك المدللة التي قد لا تقبل أن تواجه عقبات كثيرة أراها تقف في طريقنا.

لقد أسرت ذلك لصديقاتها أنها لن تكون زوجة لأحد مالم يكن من بلدتها تللك المدينة الرائعة أو مدينة أخرىٰ تشبهها جمالا وسحرا.

لكنها ربما تضحي بذلك إن وجد الحب طريقا لقبلها.

تبًا لتلك الأفكار التي تهاجمني صباح مساء ولا أقدر علىٰ دفعها.

ماذا عساي أن أفعل وكل طريق بيننا يحول دون الوصول إلىٰ قلبها ؟!

أنا أصلا لا أعلم عن قلبها شيئا غير ذلك الواقع الذي يؤكد أن فتاة بجمالها ورقتها لا يفوتها قطار الحب.

لكن ألا يقولون: أن الجميلات دائما أقل حظًا، ربما فاتها ما أدراني؟!

كيف يفوتها كيف ؟!

والجميع لها عاشق وبها مفتون.

متردد أنا لا أمتك الشجاعة لأبوح بحبي.

غـامض أنـا بعـض الشـيء - بـل كثيـرا - هـي أصـلا لا تحـب الغموض، صريحة وواضحة يخشىٰ الجميع صراحتها.

لا تخفي شيئا عن أحد، غير مشاعرها.

محبة للجميع لطيفة معهم، تعتبر الجميع إخوة وأصدقاء.

كاد يجن من الفكر الذي لا يدعه يرتاح.

ولكـن إلـىٰ متـىٰ هـذا الـتردد وأنـا أعلـم أن طيبتهـا وتسـليمها بمـا تسمعه قادر علىٰ أن يجعل قلبها عرضة للأزمات، خاصة مع المزيفين الـذين يسـتغلون طيبتهـا ويجعلونهـا سـلما للوصـول إليهـا وخـداعها بمشاعر مزيفة كزيف قلوبهم وأحاسيسهم

لا شك أن أحدهم فعل ذلك معها، هي تحب الجرأة والصراحة، تظن أن الصراحة دليل علىٰ الصدق.

لا تعلم أن خلف تلك الوجوه الضاحكة قلوب ميتة لاهم لها إلا اصطياد أمثالها ممن يحبون حلو الكلام ومعسول المقال.

أخيـرا قـرر أن يخـوض التجربـة قـرر الاقـتراب مـن تلـك التـي كـان يراقبهـا مـن بعيـد، أن يظهـر لهـا تلـك المشـاعر المخبئـة بقلبـه، عـزم علـىٰ أن يصـارحها بحبـه، مهـد لـذلك بالاتصـال بهـا والحديث الدائم معها.

كـان يسـتمتع بحـديثها، يخفـي في حديثـه كلمـات لا يقولهـا إلا عاشق مفتون بحبها، أحيانا يتغزل.

كانت تحب ذلك منه، لقد تشجع كثيرا، لقد بدت محبة لسماعه، حاول أن يوصل لها إحساسه دون مصارحة قبل أن يرىٰ حبه يسكن قلبها.

لقد أوشك أن يصل لقبلها، لم يبق أمامه إلا أن يتكلم، يبوح ويعبر عما في قلبه، يقول كلمة تحب كل فتاة أن تسمعها (بحبك) رددها كثيرا بنه وبين نفسه يتدرب علي نطقها، يحب أن تقع في قلبها وأن يتلذذ قلبها عند سماعها.

هو ربما قالها من قبل لكنه أخفاها بين الكلام، لم يتردد هذه المرة راجع ما سيقوله مرات ومرات قرر أن يعبر عن حبه ليخططا معا لحياة جديدة يجمعهما فيها الحب تحت سقف واحد.

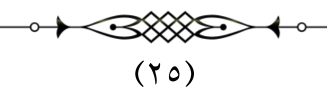
أخيرا تغلب علىٰ تلك الصعاب وهذه العقبات التي قد تقف في طريقهما.

لم يعد بينه وبين ذلك إلا لقاء واحدا وسيكون هو اللقاء القادم حتما.

ذلك اللقاء الذي وأدت فيه كل الآمال المعقودة في الوصال حين أخبرته أنها لم تعد في حاجة لحديثة الغامض الذي لم تفهم منه شيء.

محطات





(٢٥)

محطات

استريح.

لا بد أنك تعبت من السفر، هل تشعر بالدوار؟

- لا لا، أنا بخير.

لكن يبدو عليك الإجهاد! الحمرة بعينيك تؤكد ذلك.

- بسبب ما سمعت ورأيت.
- أنت من تسألهم أم هم من يحكون لك طواعية؟!
- هم الذين يحكون بمجرد أن أنظر في عيونهم؟
- لكنهم غرباء، أنت لا تعرفهم كيف لغريب أن يحكي لك كل هذه التفاصيل وبهذه الجرأة؟!
- لا أعلم لكنهم يحكون لا يخفون عني شيئا..
- واليوم ماذا حدث؟
- سأحكي لك منذ أن ركبنا القطار: سمعته في أول العربة يقول تذاكر يا بهوات، كان يقولها وهو كاشر الوجه معقود الحاجبين، بمجرد أن نظرت إليه حكىٰ لي

قال: أظن أنه عندها الآن، أخرج أنا ويدخل هو، منذ أن تزوجنا وهي تعاملني بغلظة يبدو أنهم أجبروها، علمت بعد زواجنا قصة الحب التي كانت بينهما، هذه الزيارات المتكررة لم تكن طبيعية أبدا،

كانت تبرر دائما_ ابن عمي وجاي يزورنا _ وفي كل زيارة تلبس أجمل ثيابها مما لا أراه أنا ولا تلبسه لي، مما يظهر مفاتنها وكلما حدثتها في ذلك اتهمتني بالتخلف والرجعية، في كل زيارة كانت هي من تتحرش به بنظراتها ودلالها وطريقة كلامها التي لا تعجبني، تطورت هذه الزيارات مؤخرا فأصبحت بدون علمي، غالبا تكون في الخفاء من وراء ظهري، حين أكون بالعمل، البيت بجوار الشارع مما يسهل عليه الدخول والخروج ولا أحد معها لتخاف، وحين أعود تكون نائمة بشكل مثير، وعندما تستيقظ يبدو عليها الإرهاق، كل الأشياء بغرفة النوم تكون مبعثرة مما يؤكد شكوكي، أتخيل ما يحدث بينهما بوجودي فكيف وقد خلىٰ لها البيت وقت غيابي...

لا بد أن أجد حلا ولا حل إلا أن أقطع الشك باليقين وأتأكد من خيانتها....

تذاكر يا حضرات تذاكر يا أستاذ تذاكر يا آنسة، أعطيته تذكرتي تأكد منها وهو يقول لا بد أن ينتهي هذا الأمر وبأسرع وقت، ثم غاب عن عينيّ في زحمة القطار لا أراه ولكن من بعيد أسمعه ينادي.. تذاكر.. تذاكر يا بهوات..

حين نظرتُ عن يميني رأيتها بالمقعد المجاور فتاة عشرينية، بيضاء مكتنزة خالط بياض جبينها حمرة، فتلألأ وجهها المستدير كأنها شمس الصباح ومصدر النور، رُسمت علامات الحزن علىٰ وجهها، لم تمهلني حتىٰ أسألها عن اسمها بدأتني قائلة لا أعلم ماذا أفعل ولا كيف أتصرف؟ لقد

مضىٰ شهر علىٰ ما حدث، هذه السنة هي الأخيرة لي بالجامعة، كانت تحكي وتضع يدها علىٰ بطنها قالت: يكبر يوما بعد يوم، أخاف أن يفتضح أمري، حين التقينا قال لي: لا تخافي أنا قد وعدتك، ألا تحبينني؟

- أحبك، لكن ما علاقة الحب بما تطلب؟! لقد قبلت أن آتي معك كي لا يرانا أحد فيخبرهم، هنا نكون بأمان ونقضي وقتا جميلا، لولا ثقتي بك ما أتيت، لقد اشتقت إليك ولم أعد أحتمل وقريبا سنتزوج، بقي شهر واحد لن يحدث شيء.

نظر في عيني وبدون مقدمات جذبني نحوه وضمني إلىٰ صدره، أغرقني بالقبل، تعالت أنفاسه فتخدر جسدي وسرت تلك الرغبة المحمومة إلىٰ كل كياني فاستسلمت، لحظات من السعادة الكاذبة بعدها تحولت حياتي إلىٰ جحيم.

اختفىٰ من يومها، بحثت عنه كثيرا ولم أعثر له علىٰ أثر.

ماذا أفعل؟ لم يعد أمامي سوىٰ الانتحار وإلا افتضح أمري، توقف القطار فانتبَهت كانت محطتها، نزلت مسرعة وقبل أن تخبرني ماذا ستفعل؟!

شاي شاي.. شاي سخن..... يحمل براده ويدور ينادي بأعلىٰ صوته شاي يا حضرات، شاي سخن... يقول الكلمات يرددها بلسانه وقد ترك قلبه وعقله معها...

هكذا أخبرني بمجرد أن صب الشاي.. لن أزوجها لك، يقولون:

زوج ابنته لبائع شاي سَرّيح.. أنت مجنون أبحث عن زوجة تناسبك وتليق بك.

- ماذا فعلت ؟! لقد طردني أبوكِ لم يوافق.
- (وماله بياع الشاي) أنت رجل تكسب رزقك من الحلال.
- هذا الحلال لا يعجب أبوك.. حاولي أنت معه وإلا ليس أمامنا إلا الهرب...
- الهرب؟! ستكون فضيحة، لن يسامحوني إن تمكنوا مني ربما يقتلوني.
- هل لديكِ حل آخر.. قلت لك أنه سيرفضني قلتِ حاول.

لقد حاولت لتعلمي صدق حبي.. الدور الآن دورك ليس أمامنا إلا الهرب، وإلا لا تحاولي الاتصال بي مرة أخرىٰ.

- وأين سنذهب؟! إلىٰ أي مكان نتزوج ونضعهم بالأمر الواقع لا حل أمامنا سوىٰ الهرب لا تترددي.

انشغل عني بسبب هذا النداء المتكرر الذي يطلبه بصوت يشبه صافرة القطار بقوته، نظرت لأرىٰ صاحب الصوت وجدته يجلس بجوار الباب بعد أن أغلقة وتمدد، بجلبابه الصوف الأسود وعمامته البيضاء التي تدلت علىٰ عينيه فكادت أن تحجبهما، عدل عمامته وقال: شاي تقيل يا بلدينا، تقيل حبر، دفع إليه المال ومع أول رشفة من الشاي أصبح بجواري تنهّد ثم قال: لا أعلم أين أذهب بعد أن قتلته دون أن يرمش لي جفن لقد ربتني أمي لهذا اليوم، تأخر كثيرا لكنه أتىٰ وانتقمت

لأبـي أخـذت ثـأره، اجتمعـوا عليـه قبـل عشـر سـنوات أجـبروه أن يبيـع هـذه القـراريط التـي يملكهـا والتـي تحيطهـا أرضـهم مـن جميـع الجهـات، رفـض فقتلـوه وتخلصـوا مـن جثتـه لـم نـر جثتـه ولـم نـتمكن مـن دفنـه، حُفظـت القضـية ضـد مجهـول لـم يتعرفـوا علـىٰ الفاعـل، وهـو بيننـا حـر طليـق ينظـر في أعيننـا ويعيرنـا ضـعفنا، يهـددنا إنْ لـم نوافـق؛ مصـيركم كمصـير والـدكم إن لـم تقبلـوا بـالبيع، خافـت أمـي فهـم مجرمـون، يفعلونهـا وأنـا ولـدها الوحيـد وأربـع بنـات تـركهم أبـي في رقبتهـا وتركنـي أحمـل هـذا الهـم الكبير؛ أربع بنات وثأره، قتلته وهربت...

لا أعلم كيف حالهم الآن ما يطمئنني أن الثأر والانتقام لا يكـون في النساء، وأنا لم أتعد علىٰ أحد فقـط انتقمـت لأبـي، قتلـت مـن قتلـه، نحن الآن متعادلون.

لم يكمل كلامه وقفز قبل أن يتوقف القطار قبل دخـول المحطـة لما أتت دورية التفتيش.

كان صراخه يتعالىٰ كلمـا اقتربـت، ارتفـع الصـوت حـين اقتربـت منها في طريقي نحو الحمام، كانت تضمه إلىٰ صدرها تحاول إسكاته، مل كل من حولها من صراخه، حاولي أن تسكتيه، ربمـا يكـون جائعـا، أرضعيه ليهدأ ويتوقف عن البكاء.. صدعنا...

رأيت المقعـد بجوارهـا فارغـا فجلسـت، مسّـدتُ رأسـه فسـكت كانـت منتقبـة، لـم أرَ مـن وجههـا إلا عينيهـا حـين نظـرت فيهمـا بكـت وقالت:

بعد علاقة الحب التي دامت لسنوات وفّىٰ بوعده وتقدم لخطبتي كان يكبرني بخمس سنوات، بيتنا مجاور لبيته كلما مر أمامي اشتعل بقلبي الحريق...

طالت أيام حبنا وكلما كبرنا كبر معنا، استجاب الله دعائي فكان من نصيبي، لم يغضبني يوما ولم أغضبه، كانت حياتنا مثالية في كل شيء، كثيرون يحسدوننا علىٰ مانحن فيه، لم يمض وقت طويل علىٰ زواجنا حتىٰ بشرني الطبيب بالحمل.. ولد! أتمنىٰ أن يشبهك ليكون نسخة منك وسلوتي عنك أوقات غيابك..

سنذهب رحلة بمناسبة هذا الخبر السعيد..

علىٰ البحر كانت الأمواج عالية والرياح تكاد تقتلع الخيام من علىٰ الشاطئ، لا تخاطر الأمواج عالية أرجوك، توجد تحذيرات بعدم النزول في هذه الأجواء، لا تخافي زوجك سباح ماهر، لم تكن إلا لحظة واحدة سحبته فيها أول موجة وأخذته معها وإلىٰ الآن لم يعد.....

لم أعرف منها إلىٰ أين تذهب لم تخبرني بوجهتها، كانت ساعتها تشارك طفلها البكاء حين فتح باب الحمام ودخلتُ.

اصطدمتُ به فور خروجي كنت أود سؤاله ماذا ستفعل وكيف ستتصرف مع خيانتها، لكن وقبل أن أسأله رأيتها تفترش الأرض، يكلمها وهي تنظر في ذهول ولا تجيب، تذاكر يا حجة.... أين تذكرتك؟

لم ترد، فكرر ما قاله (أنتي مابتسمعيش)؟!

في العقد السابع من عمرها، شاب شعرها وضعف بصرها لا تسمع جيدا اقترب منها أكثر، إلىٰ أين تذهبين؟! أي مكان يا ابني أي مكان أنتو رايحين فين ؟! القطار من أسوان إلىٰ الإسكندرية (قولي هتنزلي فين) ؟ لا ترد ولا تعرف إجابة لسؤاله إلىٰ أين تذهبين؟ اشفقت علىٰ حالتها ونظرت إليها فأخبرتني بما حدث..

تكررت شكوىٰ زوجته من وجودي، لم تعد تحتمل، خيرته إما أنا أو هي بالبيت، اتهمتني كذبا قالت: طلباتها لا تنتهي وكذلك بكاؤها وشكواها، عليكَ أن تختار إما أنا أو هي، لم يجد بدا من أن يتخلص مني، لا أحد لي بالدنيا غيره هو وحيدي وحبيبي، دار العجزة قريبة ولكن لا أملك الإنفاق عليها هناك، إذن أرسلها إلىٰ أي مكان ضعها في القطار وسيتولىٰ الله أمرها، يكرر سؤاله بغضب، هتنزلىٰ فين يا حجة؟ هو لم يخبرني قال اركبي القطار وودعني لا أدري لمَ كان يبكي، طلبت منه أن يتوقف عن البكاء احترق قلبي عليه.

سألتها أنا والآن ماذا ستفعلين؟ سأبقىٰ هنا في القطار ربما يغير رأيه ويأتي ليأخذني، مسكين لا يستطيع أن يرفض طلباتها، كان النداء الألي يعلن أن المحطة القادمة هي محطة رمسيس انشغلت بتجهيز حقائبي لم يمهلني الوقت لأساعدها، مازالت صورتها لن أنسىٰ عينيها المتعبتين نزلت من القطار بينما كانت تلوح لي ودموعها تنهمر.

استريح... كما أنت، اشرب الليمون مهدأ جيد للأعصاب، يمكنك أن تتمدد، سأعود بعد قليل أشار إلىٰ أحدهم ممن كانوا معه

ليخـرج في صـحبته خرجـوا مـن حجـرة الكشـف ودخلـوا المكتـب المجاور، سأله أخبرني ما المشكلة؟ لا أعتقـد مـع كـل هـذه التفاصيل والحكايات أن شيئا أصاب عقله، تصـرفاته أيضـا لا تـدل أن بعقلـه أي خلل، حقيقة يا دكتور أنا لا أعلم ماذا أقول لقد رافقناه طوال السفر من قريتنا إلىٰ القاهرة، كان طوال الوقت يتفحص وجوه المارة، ينظر إليهم ويحدق في أعينهم، جلسنا بمقاعـد متجاورة، راقبناه جيـدا خوفـا مـن تصرفاته وأفعاله الغريبة، كان الجميع يستغربون نظراته لكنـه لـم يكلـم أحداً ولم يكلمه أحدٌ، المشكلة هـي أن كـل مـا قالـه وحكـاه كـان مـن وحي خياله.





* الخاتمة *

توتا توتا

ما بين كان ياما كان وتوتا توتا....

تظل حكايات كثيرة حبيسة بقلوبنا تنتظر دورها في الحكي، حكايات كحكايات الأجداد التي حفظها الزمان وما زال الأحفاد يتناقلونها بينهم، كان أجدادنا دائما يبدؤون حكاياتهم بقولهم : (كان ياما كان) وكأن كان ياما كان مفتاح سحري يَفتح لهم القلوب، كل الحكايات تبدأ بها؛ حكايات الحب والبطولة والتضحية، حكايات النصر والصبر والفرج، حكايات العزيمة والكفاح والفداء، حكايات الكرم والسعادة والفرح، حكايات الشجاعة والمروءة والإقدام، حكايات وحكايات وحكايات...

خلدت ذكرهم علىٰ مر الزمان، وحفرت أسماءهم بين الأبطال والشجعان، حكايات اكتملت أحداثها وكانت (كان ياما كان)، و(توتا توتا) كدفتي كتاب حفظتا كل الحكايات السعيدة عن سيرة الأجداد....

لكن حكاياتنا لم تكن مثل حكاياتهم، فكل حكاياتنا غريبة وقصيرة وحزينة، تنتهي قبل أن تبدأ، في كل مره نظن أنها البداية، بداية جديدة لحكاية سعيدة، لكنا نجد أننا وقبل أن نبدأ الحكي وصلنا



النهاية، وبين البداية والنهاية لم تكن حكاية وإنما ذكرىٰ حزينة لشبه حكاية.

كثُرت الذكريات والحكايات التي لم تكتمل ومازال هناك أمل أن نكتب حكاية سعيدة تبقىٰ بعدنا وتخلد ذكرنا، وفي يوم جميل من أيام عمرنا نكتب نهاية لحكاية اكتملت أحداثها وتكون (توتا توتا) خاتمة سعيدة لكل حكاياتنا التي لم تكتمل بعد.

